فهد العتيق

الملك الجاهلي يتقاعد

رواية ٢٠١٤م

الملك داوود يتقاعد

بعد العودة من السفر ، ذهبت إلى البيت وحيدا ، وأنا مبتهج بمتعة حرية صغيرة ، متعة أن أسرح وأمرح وأفكر وأقرأ وحيدا ، ولو مؤقتا ، وكان في بالي عبارة لذيذة للنفري لا زالت ترن في رأسي ، كأنها أغنية : سدَّ باب قلبك الذي يدخل منه سواي . . لأن قلبك بيتي . قلت في نفسي : أريد قلبها وأريد الحرية ، حتى لو كانت حرية مؤقتة أو مشروطة .

وقفت أمام مرآة حوض المغسلة ، فتحت الحنفية ، غسلت وجهي من غبار سنوات قديمة من القلق والتعب والبهجة والأسئلة والكوابيس ، دفعة واحدة ، في لحظة واحدة ، مشاعر مختلطة ومتناقضة .

كنت أشعر بالدوار المخيف يعود لرأسي مرة أخرى ، يعود ويختفي ، ومعه يعود ذلك الصوت المؤلم لوجه قديم متكرر لا

أعرفه ، صوت صغير ، مثل وخزة ، مثل نبضة مرتبكة ، شيء كأنه يأتي من تلك الأعماق القديمة في روحي ، يتلصص على حياتي ، يهز وجداني ويربك وقتي ، يأتي في لحظة سريعة ويذهب ، يهزني ويصيبني بلحظة رعب صغيرة وسريعة ويمضي ، فأشعر بعده بصعوبة في التنفس .

في مرة سألت داوود عن هذه الحالة ، قال لي : هذا ضميرك ، لكن سعود قال لي : هذا شيطانك .

آخر مرة عادتني هذه الحالة قبل أشهر ، حين عدت إلى البيت في الظهر لأجده كالعادة في انتظاري ، صامتاً بوقفة مهيبة ، وضعت الصحف جانباً ولم أجلس لآكل ، مضيت إلى غرفتي بسرعة ، لم أخلع ملابسي ، ولم أدخل الحمام ، فتحت الجهاز على أغنية واتجهت رأساً إلى السرير ، رميت جسدي ، كما لم أكن معتاداً ، وآثرت ذلك اليوم أن أنام على ظهري ، لأول مرة أرى سقف غرفتي بتركيز ووضوح ، ظللت أتأمله ، ورأيت بوضوح ، خطوط ماء جف منذ زمن تنزل من السقف على الجدران ، ثم نمت ، ويا الله ، أية راحة تكشف عنها هذه الطريقة في النوم ، وفي الصباح سمعت من يقول لي : هكذا ينام الأنبياء ولم أصدقه . إنه هو الذي اتصل بي ذات صباح ، وقال لي : أريدك في أمر مهم ، وحين زرته في بيته لم أجده ، كانت حارتهم غريبة ومليئة بالمستنقعات ، انتظرته في أحد الأركان وفي يدي جريدة ، كان السكان ينظرون في وجهي

باستغراب ، مشيت على الأرصفة المليئة بالبشر ، سألت عنه في مقهى مجاور ، قالوا لي إنه مريض ، اتصلت به ولم يرد ، فعدت مجددا إلى حارتنا ، وقد عقدت العزم على إهمال اتصالاته .

قلت في نفسي إن ذاتي الآن مفككة ومبعثرة فعلا ، بين روحي وشيطاني ، ذاتي تحتاج إلى ترميم أو تنظيم على طريقة شيخنا النفري ، ربما من طريق رؤية فلسفية عالية أتحقق فيها من وجودي ، ولهذا أتذكر الآن تلك الليلة ، عندما قرأ علينا داوود أبو سليمان في غرفته الصغيرة ، مقاطع من روايته : الملك الجاهلي يتقاعد ، كوميديا روائية أو مسرحية من كواليس الجاهلية ، عن آخر ملوك كندة نجد في الجاهلية ، كما قرأ علينا بعض عبارات النفري من كتاب المواقف والمخاطبات ، وهو الكتاب الذي ألفه النفري من أجل تنظيم ذاته المبعثرة كما قال .

الآن يعود الدوار لثوان كأنها دهر ، ويبدأ يخف تدريجيا حين أرفع رأسي وأتنفس بعمق ، أتذكر داوود أبو سليمان ، هو من يشعر دائما بالدوار في رأسه ، ربما بسبب سهر الليل ونوم النهار ، داوود البساطة والهدوء ، هو ملك الجاهلية الجديدة ، ونحن الجاهليون الجدد ، هو ملك الدوخة ، وملك السهر والحلم والأنس والإثم والقراءة .

أغمضت عيني وغسلت وجهي من آثار الدوار ، غسلت

رأسي ، وأنا أهجس بزمننا الذي مضى وانقضى . . كبرنا دفعة واحدة ، أنا ، والأصدقاء ، وكل الناس ، كبرنا وتفرقنا .

كل الناس كبروا أو ماتوا ، ماعدا الذين لانعرفهم ، مازالوا صغارا .

كبروا واختفوا فجأة ، لم أرهم منذ سنوات طويلة ، انشغلوا في حياتهم ومسئولياتهم ، كبروا في الجاهلية الجديدة ، أو ماتوا فيها ، ولم يبق لي سوى ذكريات زمني الذي مضى وانقضى .

قبل حوالي عشر سنوات ، أيام الثانوي والجامعة ، كنت أسكن حارة حيوية جدا غرب الرياض ، حارة على جبل البديعة ، مليئة بالفيلات ذات الأسوار العالية والمساجد والمطاعم الشعبية وبهجة ملاعب كرة القدم الترابية وأعلام الهلال والنصر وموسيقى البيوت والشوارع والسيارات والتشدد الديني والأفراح والأحزان والأمراض والإحباط والكآبة ، كل هذه الاشياء تتجاور جنبا إلى جنب حكايات أسطورية ، كأنها رائحة تتجول في الحارات ، مع مقولات متكررة عن الحياة الفانية وغضب الله ، تعرفت على ياسر وصالح في الحارة وتعمقت العلاقة في مقهى همس العيون ، ثم تعمقت العلاقات مع داوود الذي أدخلنا هو وصديقه سعود في الجاهلية الجديدة .

الآن أحاول تذكر وتأمل ما حدث بهدوء وعمق ، أحاول

قراءة نبض تلك الشوارع البسيطة ، محاولة لذيذة وصغيرة للنفاذ داخل مشاعر تلك الحياة الموجزة ، وما حدث في تلك الفترة من مغامرات جاهلية ، في الأسواق والمقاهي والبراري ، والعمل في مكتبة داوود بعد التخرج ، في انتظار عمل لم يأت بعد ، لكنني بعد كل رحلة تأمل ، أعود دائما محملا بالأسئلة التي تنتهي بأسئلة أخرى ، فأضحك على حالي وعلى خيبتي وإحباطي ، أعود محملا بسنوات موجزة ، مرت هكذا سريعة ومجنونة ولاهثة ، ولم أستوعب تماما ما حدث فيها ، وأشعر أنها سرقتني من حياة أخرى كنت أريدها ، حياة فيها خيال يعمل وليس مجرد نزوات تركض .

أتذكر كل الأصدقاء وكل المواقف والحكايات دفعة واحدة ، في الحارة ، المقهى ، بيت داوود ، لازلت أتذكر التفاصيل الصغيرة ، من تلك الحياة المبكرة والسريعة والموجزة التي عشناها معا ، أشعر أنها حدثت بالأمس ، الآن أراهم جميعا ، يمرون في ذهني مثل حلم أو مثل شريط حكايات سينمائي سريع ، قلت في نفسي : ياليت أستطيع أن أجمع كل هذا في فيلم ، لكنها تظل مجرد أحلام صغيرة مثل فقاعات سوف تنفجر وتتحول إلى لا شيء ، أو مثل شهاب ساقط ، أو مثل قمر صناعي قديم ضائع في االفضاء لا يلبث أن ينفجر فوق رؤوسنا ، ونحن نظنه صحناً طائراً قادماً من المجهول أو رسالة من السماء تمضي فوق رؤوسنا نحو حتفها ، عقابا لنا ، ربما هي

أحلامنا التي لا تتحقق كثيرا في عالم فوضوي الهوى ، كسول المزاج ، ضعيف الخيال ، لهذا أشعر بالجانب الكوميدي في كل ما مررت به من صور ومواقف متناقضة وقاسية ومؤلمة .

مضت سنوات على تلك الأيام البعيدة ، كبرنا لكن لازلنا صغارا أمام الذاكرة والنساء وأعمارنا ، مضت السنوات راكضة ، ومضينا نركض خلفها ، تتساقط خلفنا أشياء كثيرة وجميلة لم نكن نفهم معناها ، كنا نحب ونكره دفعة واحدة وننسى دفعة واحدة ، وكانت الموسيقى والبنات ودوري كرة القدم والشعر ، فاكهتنا اليومية ، مضت السنوات وتركت لنا رائحة من عمق تلك اللعبة ، لعبتنا جميعا في حياة مبكرة ، مرتبكة ومتوترة ، بقلوب منكسرة وأرواح كفيفة ، أرواح متوهجة ومحبة وساخطة ، لازالت حتى الآن عبارة مثل (الجاهلية الجديدة) ، ترن في رأسي بعمق ، كانت جوهر التعليقات على أي شيء ، حين أتذكر هذه العبارة ، أشم رائحة أغنيات تلك الفترة ، وأتذكر جلستنا في غرفة داوود أبو سليمان ، نحاول أن نكمل فصول روايته المفتوحة الملك الجاهلي يتقاعد ، وأتذكر سفرنا للبحرين ، نذهب في ليلة واحدة لمشاهدة فيلم جديد ، نسهر ونعود صباح الغد في حياة راكضة ، أسرح مع مباهج تلك الفترة وأحزانها ، وأشعر بألم حين أعرف أنها ذهبت بلا رجعة ، أمضينا معا سنوات غادرتنا مثل برق ، أو مثل فيلم سينمائي ممتع ومؤلم في وقت واحد ، فيلم من أفلام يوسف شاهين التي

تعتمد المقاطع ، وأنت حر في مسألة ترتيبها بلا تقيد بزمنها الحقيقي ، الذاكرة ترتب المشاهد كما تشاء .

دائما يرتسم أمامي وجه داوود ، الملك الجاهلي ، الذي تقاعد مبكرا من الحياة ، تلاشى أو اضمحل مبكرا ، متوسط الطول ومتوسط الوزن وله وجه مدور وسيم جدا ، خصوصا عندما يبتسم تلك الابتسامة الصامتة العذبة والموحية ، صامت وهادىء وصديق للجميع ، يقرأ كثيرا ويكتب قليلا ، لا يدّعي المعرفة أو الثقافة ، لأنه بكل بساطة يسألنا عن أي شيء لا يعرفه أو عن حادثة اجتماعية لم يتابعها ، ونحن نفتخر بأسئلته لنا ، ونجيب أحيانا بمبالغات لكي نثير اهتمامه ، لا تشعر أن لديه ميولاً استحواذية أو أنانية ، يتحدث بثقة ولا يقطع بشيء ، يضع كل الاحتمالات ، ويستمع للجميع باهتمام ويحيط الجميع بروحه الحلوة .

كنت في السابق أكره كلمة تراث ، وأقرأ في الأدب الحديث ، لأنهم يقدمون لنا التراث المغلق بطرق تقليدية ، لكن مع داوود أبو سليمان ، عرفت التراث الحي والحر فأحببته ، أدركت القيمة في بعض حكايات الجاهلية النابضة بالفن وحب الحياة ، وأدركت تحرر وعمق وجمال النفري وابن عربي وحكايات ألف ليلة وليلة وغيرها .

صورة داوود ووجوه أخرى تغيب وتحضر ، تتوهج وتخفت في ذاكرتي ، لكن صورة نادية تحضر في روحي غامضة مثل

ضوء يرتعش ، ضوء يضعف أو يلمع مثل برق ، ثم يختفي مخلفا توابع صغيرة من الذكريات الممتعة والغامضة ، بقي أثر من تلك الحكايات والمواقف والصور في داخلي ، يرفرف مثل علم ، علم مرهق أو شاحب وغير واضح المعالم ، يلمع أحيانا ويخفت أحيانا أخرى .

تلاشى الدوار تدريجيا ، وحل محله صداع خفيف ، رأيت وجوه الأصدقاء تذهب وتعود بصورة ضبابية ، وأحيانا صافية وواضحة ، وهبت رائحة مكان أو رائحة موسيقى تلك الفترة ، رأيتها تعبر أمامي ، رأيت رائحة عميقة لأمكنة وموسيقى زمن مضى ، كأني أريد أن ألمسها ، تعبر أمامي ، رائحة مكثفة وعميقة أشمها فأنتقل لأزمنة وأمكنة قديمة ، رائحة أشعر معها بروح تلك الأمكنة تغمر صدري وقلبي وروحي ، أشعر أنها تحاول استرجاع شيء ضائع من الزمن .

يصاحب هذا أحيانا شعور أن كابوسا يجثم على أنفاسي أو على روحي أو على قواي العقلية ، لا أعرف ، قرأت مرة ، رؤية فلسفية عن العقل والوعي ، ركزت على العلاقة بين العقل والروح وأنهما الجوهر الإلهي المفترض للذات الإنسانية ، لكن نظريات علمية حديثة تعتبر أن العقل موضوع يتعلق بعلم النفس وله صلة بالوعي . فهل التفكير والذاكرة بشكل خاص وحدهما هما اللذان يكونان العقل ، بينما الوظائف الأخرى مثل الحب والكره والفرح تكون شخصية بعيدة من العقل .

حين تعرفت على نادية وتواصلت العلاقات الحميمة بيني وبينها ارتبكت روحيا كما قال لي داوود أبو سليمان ، ونبهني إلى كتاب (ترجمان الأشواق) ، قال لي : إن النقاد يرونه نموذجاً لشاعرية ابن عربي ، تلك الشاعرية الوجدانية الصادقة الصافية التي شرحها بنفسه وسماها : ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق ، فحلقت معه في وقت من الأوقات ، حيث حلق ابن عربي فوق أنواء الحب الآدمي العاصفة بحثا عن الطمأنينة الروحية ، وأتذكر أن جارية جميلة من بنات الروم سمعته يقول قصائده في الهواء الطلق ، فقدمت له رؤية نقدية على مقاطع من قصائده ، كانت غاية في الدقة أبهرت الشاعر .

تحليل الدم

قبل السفر زرت داوود بعد انقطاع طويل ، كنت متلعثما في حياة جديدة ، وكان داوود قد اعتزل العالم وصار كائنا آخر فقد السيطرة على ذاته وأصبح خارج الخدمة مؤقتا ، وصلت إلى بيتهم ، فتح الباب تركي ، دخلت وتوجهت مباشرة إلى اليسار حيث تكون غرفة داوود الخارجية في مدخل الفيلا ، وجدت شقيقته سارة على كرسي بجواره ، سلمت وجلست .

أنظر إلى داوود الصامت ، هاديء جدا وينظر في اللاشيء ، هاهو داوود أمامي وقد اضمحل جسده وصار صغيرا ، قلت في نفسي : هذه نهاية حلم لم يكتمل لداوود أبو سليمان ، لكنها ليست النهاية ، ربما يفيق بعد هذه الحالة ويعود لحكاياته ولأحلامه ولكآباته ولمتاعبه وهواجسه من جديد .

قال لي داوود وهو يصلح جلسته : هلا بك . . تعال يا أخي .

قلت له وأنا أضحك : شكلك اليوم طيب جدا . .

قال داوود بسخرية : جدا . . جدا . . لكن عندي فقر دم قديم . . ودي أحلل دم .

قالت له سارة : يا أخي حللت الدم عشر مرات . . لماذا الشكوك؟

وأنا قلت له : يا عزيزي . . لا تحتاج إلى تحليل . . دمك خفيف وجميل .

قال داوود وكأنه لم يسمعني : تكسر الدم هو مشكلتي يا ناس .

قلت له : بسيطة تذهب معي إلى مستوصف قريب وتحلل الدم .

قال لي : كم المفروض يكون الرقم؟

قلت له : أي رقم؟

قال وهو غاضب : رقم قوة الدم يا أبا جهل . .

قلت له وأنا ضحك : والله لا أعرف ياداوود .

ثم التفت داوود إلى كيس الأدوية الذي بجانبه وتناول حبة بيضاء ، وشرب معها الماء من قارورة صغيرة بجانبه .

سألته عن نوع هذه الأدوية .

قال بغضب صغير : مضاد وحبوب مهدئة يا أخي . .

ثم بسرعة حاول داوود تغيير الموضوع ، وسألني عن نادية .

قالت سارة : هذه الأدوية هي سبب مشاكله . . لو يتركها كان صار بخير .

قلت له : حـــاول أن تتـــرك هذه الأدوية حـــتى لا تصل للإدمان .

قال داوود بصوت خافت وهو لا ينظر إلينا : إن شاء الله .

كـان سـارحـا ينظر في الجـدار الصـامت الـذي أمـامـه ، وفي عـينيـه نوم ، ربما من أثر أنواع الأدوية الـتي يبـتلعـهـا ، يبـدو أنه لايسمعنا بوضوح الآن ، كان يغمض عينيه ثم يفتحهما ، ليس هذا داوود الـذي أعــرفـه لـلأسف ، لـهــذا كنت أرغب أن ينام ، بدأت أخــاف من داوود الذي أحــبــبت ، أخــاف أن يفــيق أو ينهض أو يزعجنا بشكوكه .

أتذكر داوود ، دائما كان يحكي لنا بمتعة وإثارة عن الجاهلية الأولى والجاهلية الثانية ، يقول إن جاهليـة نجد الأولى انتهت مع مملكة كندة الملوك ، ويذهب بعيدا في سرد تفاصيل ملوكها وقبائلها وشعـرائها وشاعراتها وحروبها وحكاياتها وأحداثها ، وبالذات حكاية مقتل ملك العرب في الجاهلية عمرو بن هند على يد عـمـرو بن كلثـوم ، وأذكـر أنني تلك الفـتـرة أخـرجت الحكاية من جوجل واستمتعت بتفاصيلها وقصيدة عمرو بن كلثوم المشهورة عنها . داوود الذي تتبع معنا أصل كلمة (عرب) المختلف عليـهـا ، وقـرأ علينا حكـايات ابن عـربي وجـلال الدين الرومي وحي بن يقظان وألف ليلة وليلة وقـصـة ابن زيدون مع ولادة بنت المستكفي ، وكـان يكرر علينا أهمـيـة التـاريخ لفـهم واقعنا الحاضر .

أسـرح في كل مـا كـان يردده : كـانوا في الجـاهليـة الأولى يتحاربون على بئر الماء أو على شرف وكرامة امرأة أو على ناقة ، لكن الآن ، في الجاهلية الجديدة ، يتقاتلون على الكرسي وعلى المنصب ، وفي النهاية هم جميعا في الجاهليتين ، يتقاتلون على المال والنساء والأراضي ، أو ينتحرون بأحزمة ناسفة .

كنت أسأله عن الجاهلية الثانية .

يقول لي بسرعة وهو يضحك : أنت ملكها .

ثم يكمل : نحن نعيشها الآن يا أبا جهل .

قـال لـه مـرة صـديقنا سـعـود : أنت ياداوود ملك الجـاهليـة الجديدة .

يرد داوود وهو يضـحك : أنا لا أنكر جـاهليـتي ، لكن أنتم تنكرون جاهليتكم .

ربما القصة الغامضة التي لا تفارق خيالي ، حين ظل داوود نائمـا في غرفـته لعـدة أيام ، هذه كـانت بداية انحـداره نفسـيا ومعنويا وجسـديا ، لابد أن خللا كـبـيرا فـيـه ، وهو لا يعـرف ما الذي جعله يتوقف عن مسيرته الاعتيادية هكذا ، عند انبطاحة طويلة ، وقـبل ذلك ليقول لنفسـه في ذلك المسـاء الحزين : أريد أن أنام فـقط ، وهو يعلم أنه أفـاق للتـو ، وربما الذي حّـركـه تلك اللحظة أكـبر من أن يعـيـده كـمـا كـان قـبل الآن ، تلك الأزمنة الغـابرة التي ركض فـيـهـا أبوه ، وركض هو من بعـده ، ولكن لا يعرفان إلى أين ، تملؤه رائحة الغرفة العالقة منذ زمن بالوسادة ،

لم يكن يشعر بأي شيء ، وكان جسده هادئا كما لو أنه يريد أن يلبث هكذا حتى الموت ، ولم يكن أكثر من هذا الشعور المدمر بالخوف وفقدان الحياة ، إلا انبطاحة سهلة مدت جسده ببذخ على السرير بينما ترتفع من رأسه أصوات خافتة تئن متوازية مع أزيز غامض يدور في جوف رأسه ، حتى ارتفعت رائحة الحزن والغضب في الحارة وأخذت تفوح وتكسو الجدران بأثرها الرمادي الغامض ، فقال الناس أشياء كثيرة عن الحياة وغضب الله .

انقطع تفكيري فجأة وأخذ طريقا آخر ، طريق سؤال غامض ، وأنا أمام داوود الراقد ، أردد في ذهني : هل سنفقد داوود ، لماذا لم يتزوج ، ثم فجأة انقطع التفكير بسرعة ، وصرت أفكر في حالي ، هل دمرني الملك داوود بهذه الحياة الجاهلية ، أم أنه قدري ، هل كان بإمكاني أن أسلك طريقا آخر بعيدا من داوود ، أين ، ومع من ، كيف وأنا كنت أرى قدمي غارقتين في طين هذا الحي منذ الولادة وحتى اليوم .

كان ياما كان . . في جديد الزمان . . كان فيه ملك جاهلي عظيم الشأن . . اسمه داوود أبو سليمان ، ربما هذه مقدمة أول محاولة كتابة لتسجيل انطباعاتي تجاه داوود أبو سليمان .

تربينا معا تقريبا ، هو أكبر مني بعامين ، وشقيقته سارة أكبر مني بعام ، وشقيقه تركي أصغر مني بعام واحد تقريبا ، كل شيء ينتهي بتقريبا ، ليس في حياتنا شيء مؤكد ، كل

شيء غير مؤكد ، ماعدا حقيقة أحلام مؤقتة نعرفها وخيال متوقف عن العمل ، لكن داوود لا يعترف بمرضه ، يسهر ويدخن ويشرب ويأكل قليلا ، ينقطع عن المكتبة ويعيش حياة الجاهلية ، حياة الفوضى الـمُرتبة .

أعود الآن بعد أن سرحت طويلا ، إلى غرفة داوود ، وأتأمل رقدته الموحية ، ليست رقدة مريض يتألم ، لكنها أشبه برقدة هائم أو تائه يبحث عن درب واضح من دروب متعددة أمامه ، وكل درب يفضي إلى دروب فرعية كثيرة ، أتأمله من الكرسي الذي أجلس عليه وأتذكر حكاياته عن حياة ملوك كندة في الجاهلية ، قصص طويلة مليئة بالحوارات المضحكة .

ألتفت بحذر إلى خالتي سارة ، أراها جميلة ومسترخية على الكرسي ، وغارقة في هواجسها ، لم أر سارة بهذا الشكل أبدا ، سارةُ المرحِ والحيوية والضحك ، هي في عمري تقريبا لكنها تميل إلى الطول والنحافة ، جميلة وحيوية وذكية ، حصلت على بكالوريوس إدارة وتعمل في مدرسة أهلية .

في إحدى المرات طلبت خالتي سارة من داوود أن يهتم بنفسه وبالمكتبة وحياته ، لكن داوود كان يسخر من مطالب سارة ، قال لها وهو يضحك : هذا البلد ورشة بزنس وليس بلد ثقافة ، ضحكت سارة وأكملت : انشر قراءاتك عن الجاهلية في الصحف ، قال لها : هذه صحف حكومية محافظة لا تنشر عن السياسة والنساء ودوارق الخمر ، قالت له وهي تبتسم قاصدة

استفزازه : اذهب إلى النادي الأدبي ، قال لها : هذا مسجد أو إدارة رسمية وليس نادياً ، كل شيء فيه بحساب ، الضحك بحساب والكلام بحساب والأدب والفن أيضا بحساب ، المقاهي أجمل وأفضل . . ثم يضحك بسخرية .

في هذه اللحظة الغارقة في التأمل والتذكر ، انتبهت لداوود يفيق ويقول لي :

أنت . . تعال .

ثم رأيته على السرير يبتسم ابتسامة جميلة لكنها باردة ومريضة .

أشفقت عليه وأنا على وشك أن أضحك من شكله . .

وقفت ، تركت الكرسي وتقدمت بخطوات بطيئة إلى سريره ، جلست على طرف السرير ، نظر في وجهي بابتسامة ضائعة المعنى .

قال لي بصوت مبحوح : تقدر تجيب لي حبوب من القاهرة .

لاحظت بألم أنه لم يطلب إحضار كتب كالعادة . .

قلت له : ربما غير موجودة في صيدليات القاهرة .

قال : يا أخي أحس دقات قلبي سريعة .

أخافني كلامه .

رفع جسده قليلا ومال برأسه ، نظر في وجهي بتركيز كأنه يريد أن يعرفني .

سألني : وأنت كيف حالك .

قلت له : الحمد لله ، المهم أنت ياداوود .

قال : أنا طيب . . تعال .

قلت لـه : أنت يا داوود انقطعت عن مـقـهى همس العـيـون فتبعثر الأصدقاء .

قال بتعب : ظروف يا أخي .

مال برأسه ، أغمض عينيه ، ونام ، ربما .

وأنا ودعت سـارة وغـادرت الغـرفة مـتـوجـهـا للبيت ، كنت أفكر بألم في أشياء ومشاهد كثيرة تعبر في رأسي مثل شـريط سينمائي مؤلم وممتع في وقت واحد .

أسئلة الجاهلية الجديدة

في عصر يوم أربعاء قديم ، أيام الجامعة ، زرت داوود في بيتهم ، أوقفت سيارتي خلف سيارة الملك داوود مباشرة ، فتحت لي الباب خالتي سارة ، قالت لي وهي تضحك : تفضل في عزبة الملك داوود أبو سليمان ، وأشارت إلى باب الملحق المفتوح ، ثم اعتذرت لي لأنها ستدخل البيت بسبب وجود شقيقاتها وصديقاتها في الداخل .

دخلت بيتهم فاستقبلتني كالعادة ، في ساحة البيت ، ثلاث نخلات ، مقابل مدخل الفيلا ، وقبل النخل إلى اليسار غرفة داوود المستطيلة ، التي هي ملحق خارج البيت مع حمام صغير ، دخلت الغرفة المقسومة إلى قسمين ، إلى اليمين مكتب وسرير داوود ، وإلى اليسار الجلسة العربية بكل معداتها ، وجدت تركي يرتب الغرفة ، لأول مرة أرى غرفة داوود نظيفة بهذا الشكل ، كان داوود يمنع الجميع من دخول هذا الصندوق الغامض في غيابه ، دخلت الملحق متحمسا

لكن لم أجد داوود ، وجدت التلفزيون المفتوح والقناة الرياضية تبث مبارة من الدوري في كرة القدم ، وتركي شقيق داوود الأصغر منه كان ينهي تنظيف الغرفة ، وضع تركي صينية القهوة أمامي وقال تفضل ، ثم رقد هناك قرب الشاشة ، يتفرج بحماسة على المباراة ، لكن لا أثر لخالي داوود ، قلت لتركي أين الملك الجاهلي ياولدي الجميل ، قال وهو يضحك : خرج ولم يعد يا ابني ، قلت وأنا أستلقي على الكنبة الأرضية خلف تركي : كيف خرج ولم يعد ؟ ، قال تركي : ذهب إلى مطعم الرز البخاري ولم يعد ، ورحت أفكر أين ذهب الملك ، اتصلت به في الصباح وكان يبدو في حالة جميلة ، حدثني عن المكتبة وعن كتب جديدة يريد أن يشتريها ، ثم انقطع التفكير فجأة حين شعرت بصداع خفيف ، وبدأت أفكر في أحوالي المبعثرة التي لا تسر ، لكني غفوت قليلا ، ثم صحوت على صوت صينية الشاي القادمة من مجلس سارة ، شربت الشاي وأنا أتفرج على غرفة داوود العجيبة وأفكر في أحداث كثيرة ، سهرنا فيها كثيرا وحفظت ذاكرتها أسرارنا ، عزف لنا فيها داوود محاولاته الفاشلة في العود ، أكملنا فيها كتابة حكاية الملك الجاهلي بعد أن بدأها داوود ، وحدثنا طويلا بروحه الكوميدية اللذيذة عن الجاهلية الأولى والجاهلية الجديدة .

جدران هذا المكان الرطب بيضاء تميل إلى اللون الرمادي بسبب الغبار المتراكم ، ومن السقف ، في زوايا الجدران ، تنزل

خطوط بنية اللون لطين جف منذ زمن ، خطوط طينية دقيقة وطويلة ، من آثار مطر قديم تسرب من فتحات صغيرة في أركان السقف ، كما تلاحظ مسامير قديمة في منتصف الجدار الملاصق لسور الجيران ، تحتها تلاحظ أيضا ثقوباً سوداء من آثار مسامير منتزعة من أماكنها ، وفي الحائط المواجه له ، ينام مكيف صحراوي قديم لايعمل ، كان داوود قد قرر استبداله بمكيف اسبليت ولم يفعل .

المكان عبارة عن غرفة أو مجلس ملحق في حوش فيلا قديمة لموظف قديم ، غادر إلى القرية مسقط رأسه ، وترك في البيت زوجته وثلاث بنات وولدين ، فيلا معتمة في شارع صغير وسط حي البديعة جنوب غرب مدينة الرياض ، الحي الذي نهض قبل نهاية القرن الماضي بعشرين عاما تقريبا ، هنا ولد ونشأ داوود أبو سليمان ، كان البيت عبارة عن فيلا قديمة ومهترئة من دور ونصف ، بناها والده سليمان بن داوود الوشمي النجدي عام ١٩٨٠م ، يتوسط حوش الفيلا ثلاث نخلات عملاقة يأكلون منها التمر منذ ثلاثين عاما ، في الدور الأرضي مجالس وصالة عائلية كبيرة ، وفي الدور الأول غرفة لوالده ووالدته وغرفة لشقيقته ، وغرفة له يشاركه فيها شقيقه الأصغر تركي .

الملحق مفروش بقطعة سجاد مزخرفة ، في الزاوية اليمنى بعد المدخل ، مكتب خشبي عليه كتب وجهاز كمبيوتر ، وخلف المكتب كرسي دوار ، وفي الركن خلف المكتب سوف تجد بابا

صغيرا يصلك بحمام صغير ، وحين تخرج من هذه الغرفة من خلال بابها الصغير سيكون على يمينك الباب الحديدي المؤدي للشارع ، وعلى يسارك الباب الحديدي المؤدي للفيلا ، وفي المقابل ساحة واسعة تتوسطها ثلاث نخلات مثمرة .

سرير داوود هناك إلى اليمين بجوار مكتب صغير عليه كتب وأوراق وجهاز كمبيوتر ، وإلى اليسار الجلسة الأرضية ، وفي الركن إلى جانبها غلاية ماء وصينية بلون بني فيها كرتون شاي وكرتون سكر ، وكاسات ورق وملاعق صغيرة وبجانبها كرتون علب صغيرة من الماء ، وعلى الجدار لوحة خشب كبيرة عليها صورة داوود واقفا أمام سيارته الكابرس السوداء .

في هذه الغرفة الخارجية أو الملحق صار يسكن داوود أبو سليمان ، ترك غرفته في الدور الأول من فيلا والده وسكن هنا منذ عامين تقريبا ، هنا عرفت روح داوود أبو سليمان الحقيقية ، تعرفت على حكايته وأحلامه وأغنياته المفضلة وكتبه المفضلة .

قام داوود بتحويل الملحق في مدخل الفيلا إلى غرفة جميلة ، وضع فيها كتبه ، وعلى سطحها وضع الدش ليتابع قنوات الفضاء ، وسط هذه الغرفة الصغيرة ، يستلقي دائما داوود أبو سليمان على ظهره ، ينظر في سقف هذا الملحق ، ينام متأملا حاله ، ينام يقظا بكثير من الهدوء والعمق والشجن والحلم والألم ، بعد أن كتب بقلمه الرصاص على أوراق مبعثرة فصولا من رواية (الملك الجاهلي يتقاعد) ، وبعد أن قرأ فترات

متواصلة رقعا صفراء لابن الأثير عن حياة الجاهلية ، تلك الحياة الغامضة ، وكثيرة المصادر ومتعددة الروايات للحكاية الواحدة ، ينام داوود بعيون مفتوحة وهو يشعر في داخله برغبة في التلاشي وسط حياة جاهلية .

كان داوود أبو سليمان يقرأ في حالات الملل والتعب وغالبا في الليل ، بينما أختلف معه في هذا الجانب لأني أحب القراءة في أوقات الصفاء والبهجة ، وفي حال الملل والتعب أهرب للمقهى ، تعلمت من داوود نقد الذات بصراحة لتطويرها ، وأيضا القراءة برؤية انطباعية ، كان يكرر : انتقد ذاتك لتطوير تجاربك ، ولهذا كتبت ملاحظات سريعة على روايته (الملك الجاهلي يتقاعد) وحين سلمتها له ، قال لي : أمامك الجهاز تستطيع التعديل على النص كما تشاء .

ترك داوود في غرفته داخل البيت دولابا مكشوفا على شكل مكتبة ، يضم صفحات قديمة من صحف يحتفظ بها رياضية وفنية وأدبية ، وكتب (ألف ليلة وليلة) و(أيام العرب قبل الإسلام) ، و(المواقف والمخاطبات) للنفري ، و(ترجمان الأشواق) لإبن عربي ، وكتب لغازي القصيبي ونجيب محفوظ وإبراهيم أصلان ومحمود درويش وكافكا وبروست ، بالإضافة إلى كتاب أصفر قديم هو عبارة عن قراءات في قصائد مشهورة من الشعر الجاهلي لامرىء القيس وعمرو بن كلثوم وعمرو بن هند والمهلهل وغيرهم من شعراء الجاهلية المعروفين ، وأيضا

كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني وكتاب ابن الأثير عن الجاهلية وملوكها وأحداثها : (مقتل كليب وحرب البسوس) وغيرها من القصص ، كل هذه الكتب اشتراها خلال رحلتنا للقاهرة قبل عامين ربما .

درس داوود في مدرسة البديعة الابتدائية والمتوسطة والثانوية ، ثم درس التاريخ في الجامعة ، ويعمل في المكتبة التي فتحها والده ، مكتبة قرطاسية تشمل خدمة الطالب ، استقدموا للعمل بها عاملاً أسيوياً ، تقع في رأس شارعهم ، يزودها أحيانا داوود بكتب وأفلام معروفة منوعة ، لكنه لا يسلم من هجمات هيئة النهي عن المنكر والثقافة والفن ، للتفتيش على الكتب والأفلام .

كان بيتهم قريباً من بيتنا ، ولهذا كنت أزوره أحيانا في غرفة الملحق ، وكان في بدايات حياته ، محبا للحياة وللفنون بأنواعها ، كان حيويا ومرحا ويميل إلى الاطلاع والقراءة في الشؤون الرياضية والفنية والأدبية ، كل يوم يطالع الصحف الالكترونية العربية بحب ومتعة ، ومتابعة كل صغيرة وكبيرة في كل ما يخص الأحداث الاجتماعية اليومية وكرة القدم وشؤون الفن والغناء ومتابعة الأفلام العربية والأجنبية ، لكنه بعد تخرجه في الجامعة ، تغير كثيرا ، أهمل المكتبة تدريجيا وغرق في دوامات مشاغل سخيفة ، مات معنويا قبل أن يموت جسده المريض بمضادات الكآبة ، وروحه الحزينة بالكبت

والملل ، كل شوارع حي البديعة جنوب غرب الرياض ، الكبيرة والصغيرة ، تعرف خطوات داوود ، حفظ كل أركان الشوارع عن ظهر قلب ، وحفظ أسماء المساجد والمحلات والمخابز والمطاعم . تمر سنوات عمرنا في رأسي مثل شريط سينمائي سريع ، أضحك بألم حين أرى أنها مضت هكذا ، سنوات من الأسئلة والأحلام ، انقضى أغلبها في مشاهدة قنوات الفضاء ، ومباريات كرة القدم ، وسماع الأغاني التجارية الراقصة ، ومشاحنات عائلية ، ومتابعة لحروب المنطقة والإرهاب .

بدأ داوود يعالج متاعبه بتعلم عزف العود في هذه الغرفة القصية في حوش البيت ، صحبة أصدقاء من كل مكان ، تدخل هذه الغرفة المرتبة فتجد صحف اليوم ومجلات منوعة وكتاب قواعد اللغة الإنجليزية وجهاز الكمبيوتر ، وفي أحد الأركان وضع طاولة خشبية تجد عليها غلاية ماء وشاياً وسكراً وكاسات زجاجية صغيرة للضيوف ، وبجوار الطاولة ثلاجة صغيرة ، لكنه بعد مضي عدة أشهر ترك العود وهجر الأصدقاء ، لم يكن الجو مناسبا لداوود ، ثم إن شلة من أصدقائه وأصدقاء أصدقائه جعلوا من مجلسه مأوى لهم كل ليلة ، وهذا ما ضايق داوود وضايق والده ، وضايق الجيران أيضا ، فتفرق الجمع سريعا .

كشف لي داوود مرة ، أن أحد أصدقاء ابن عمه سعود ، سرق من غرفته خمسة آلآف ريال ، كان يضعها داخل إبريق

شاي قديم على أحد رفوف الغرفة ، وهذا المبلغ من دخل المكتبة يجمعه لإيداعه في البنك أو لدفع إيجار المحل ، وعرفت في ما بعد أنها كانت سهرة حمراء ، وأن هذا الصديق الجديد بات معه حتى الصباح في هذا الملحق ، وحين استيقظ وجد داوود نائما ، فتش غرفته وسرق المبلغ من داخل الإبريق ، وسمعت أن هذا الصديق اللص كان عاطلا عن العمل وعنده ظروف عائلية صعبة .

إضافة إلى ما لاحظه داوود مؤخرا على مزاجه وميوله نحو حكايات التاريخ ، من هنا بدأ في قراءة تاريخ الشعوب ، تاريخ العرب تحديدا منذ الجاهلية حتى عصرنا الحديث ، ومحاولة معرفة من أين أتت كلمة عرب ، درس الديانات وقرأ دخول الإسلام وقرأ القرآن الكريم وأحبه ، وبدأ يرتل قصص القران مثل سورة يوسف ومريم ، متتبعا طريقة الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ، كان لداوود صوت شجي فيه شجن ، ويذكر الأصدقاء ، أنه ذات مساء بعد أن شرب كأسا ، استمر في تلاوة القرآن لمدة عشر دقائق بصوت فائق الجمال ، لكن داوود كذب هذه المعلومة .

وقعت بعض الأحداث المهمة التي جعلت داوود يترك حجرته في الفيلا تدريجيا ، لأنه لم يقرر فجأة ترك غرفته وهجرة البيت والسكن في الملحق الخارجي ، الذي كان مخصصا لاستقبال الأصدقاء ، وربما من أهم أسباب اختصار

حياته في ملحق فيلا والده ، وتخليه التدريجي عن حياته المنظمة في غرفته المستقلة ، حالات إحباط وكآبة داهمته تدريجيا ، عاش في بداية حياته مرتبا ومنظما وطموحا وحالما ، وشيئا فشيئا صار مثل القوم ، قليل الاهتمام وقليل الترتيب وفوضوي الحالة ، وكانت البداية في هذا التحول عفوية وبسيطة ، إذ صار يتعود الجلوس في الملحق طوال فترة اجازة نهاية الأسبوع ، ثم بدأ التحول التدريجي شيئا فشيئا ، حتى صار هذا الملحق بيته الصغير ، بعد أن رأى الفوضى تدب في كل شيء حوله ، في البيت وخارج البيت ، أضف إلى ذلك أسئلة والدته القلقة كلما قابلته داخل البيت ، ثم زواج شقيقتيه ، وبقيت والدته ووالده وأخته سارة وتركي في هذا البيت الواسع القديم ، لكن البيت لايخلو من زيارات شقيقتيه وأولادهن دائما ، وفي نهاية الأسبوع يبيتون عندهم ، لهذا تحول البيت في نهاية الأمر إلى ملعب لأطفالهن ، وهذا ما أسعد الجميع ، وبث حيوية في أرجاء البيت .

بعد تلك الأحداث التي تتالت على مدى ثلاثة أعوام تقريبا ، لاحظ داوود أنه أصبح أكثر ميلا لاختصار الأمور وأكثر ميلا للكسل ، بحيث عندما يدخل البيت قادما من المكتبة ، أصبح لايتجه مباشرة إلى الباب الداخلي للفيلا ومن ثم إلى غرفته بالدور الثاني ، صار يختصر الأمر ويتجه مباشرة إلى الملحق الموجود إلى اليسار بعد الدخول مباشرة ، مقابل ثلاث

نخلات تتوسط الحوش .

يفتح الباب ، يدخل ، يفتح المكيف ، يعلق ثوبه على أي مسمار فارغ ، يرمي غترته على سطح المكتب ، يلبس القميص والشورت ، يفتح التلفزيون أو يقرأ الجريدة أو ينام ، لأنه أيضا دخل في عادة جديدة وهي الغداء بعد الخروج من المحل مباشرة في مطعم الرز البخاري المجاور لبيتهم ، وغالبا ما يتناول الغداء في العصر بعد إفطار صغير ومتأخر ، لأنه ليس من هواة المبالغة في الأكل ، وخصوصا فترة الظهر ، وهكذا اختصر موضوع الأكل فلم يعد هاجسا يزعجه ، هنا بدأ يشعر داوود شيئا فشيئا أنه على وشك أن يصبح إنسانا حرا ومستقلا .

بعد انتهاء المباراة فتح لي تركي باب حكايات طويلة ، كان يتحدث بحماسة عن حسابه في تويتر وعن الذين يتواصل معهم من الأقرباء والأصدقاء ومنهم ياسر ، ثم تحول تركي إلى حوادث السيارات والسرقات في مدينة الرياض ، وبالأخص تلك التي تقع فجر الجمعة للشباب ، يتكلم بحماسة وسرعة وأنا مستمتع بثرثراته الجميلة ، حين توقف تركي عن الحكي ، سألني عن نادية ، قلت له : بصراحة نادية على وشك أن تكون خارج الخدمة ، قال : خير ، قلت : دائما متضايقة أو تبكي بلا سبب ، قال : أعوذ بالله . . يبدو أن فيروس الكآبة انتشر في البلد . طلبت من تركي مصاحبتي للمقهى القريب فاعتذر ، ودعته وخرجت من بيتهم .

آثام صغيرة لا تضر

ذهبت أمشي على قدمي للمقهى ، مررت بتقاطع شارع المدينة المنورة مع شارع عائشة بنت أبي بكر في حي البديعة ، باتجاه سوق الرياض الدولي ، في هذه الفترة كنت مشغولا مع نادية ، أفكر كيف ستنتهي الأمور بيني وبينها ، وفي هذه اللحظة عاد لروحي ذلك الصوت الخفيف والغامض مجهول المصدر ، صوت مثل نبضة أو مثل وخزة ، صوت أشعر أنه يأتي من تلك الأعماق القديمة في روحي ، يهز وجداني ، يأتي في لحظة سريعة ، يهزني ويصيبني بلحظة رعب سريعة ويمضي ، فأشعر بعده بصعوبة في التنفس ، ظللت أمشي وأنا أنظر إلى الأرض الرطبة من أثر مطر أمس ، وأردد بصوت خافت : ضميرك . . شيطانك . . ضميرك . . شيطانك ، حتى مررت بجوار مطعم الرز البخاري ، فانشرحت روحي قليلا ، هذا المطعم صديقنا ولنا فيه جلسات وذكريات ، في أوقات سعيدة وأوقات كئيبة أعرفها ، اجتمعنا عدة مرات في هذا المطعم ، لكنه مطعم

داوود المفضل ، وأذكر أن داوود سألني مرة ، ونحن نخرج من هذا المطعم ، هل أنت سعيد ، وحين حاولت الإجابة ، قاطعني بالقول : أنا أسأل نفسي يا وليد ، ثم صمت طويلا ينظر في الأرض وهو يمشي ، ويتأمل في أشياء ، ربما أعرف ما هي .

الآن أشعر أن داوود أبو سليمان حين يخرج من هذا المطعم ، منتصف عصر كل يوم ، يبدو مثل ملك حقيقي ، ربما لأنه لا يأكل في الغالب سوى وجبة واحدة في اليوم ، ويرتكب هذا الفعل الجميل في هذا المطعم بالذات ، حين يأكل صحن الرز وصحن الباميا ثم يشرب علبة السفن أب ، يكون بهذا قد ارتكب أهم وأجمل الأفعال ، يكون سعيدا فيتذكر والديه وإخوانه وأخواته ، يتذكرهم بشوق وحب ، لكن حين يكون في مزاج سيء وفي حال التعب فإنه لا يتذكر أحدا ، يصبح منشغلا بحاله ، حالة القلق والحزن والألم التي تعصف بكيانه ووقته في الكثير من الأحيان ، لكنه اليوم سعيد ، هذا ما أظنه أو ربما هذا ما يشعر به هو ، وقد يكون شعورا عابرا أو مخادعا ، لكن ما علاقة هذا بنوبة رعب الروح الصغيرة التي تأتي وتروح فجأة ، كأنها تختلط مع ذلك الشعور الغامض بالسعادة أحيانا ، فتكون نتيجة هذا الاختلاط مشاعر ليست صريحة لكنها ليست مطمئنة ، واصلت المشي مطمئنا ، ثم سألت نفسي : هل أنا سعيد ، وفي محاولة للفهم ، شعرت أنني أحاول الاقتراب أو الالتصاق بهذه الكلمة ، أقترب منها أكثر فأراها تبتعد عني ،

بدت لي كلمة واسعة جدا ، من الصعب القبض عليها هكذا بسهولة ، وجدت أنها صعبة ومعقدة ، كلمة مغلقة تماما على ذاتها ، والتحاور معها ضعيف ، هي كلمة مؤقتة ، أو معنى مؤقت ، فدلالتها الوحيدة تكمن في مسماها ، أي أنها فقيرة حين تفكر بها كلمة مجردة ، هكذا فكرت ، بالتالي ليس هناك مجال أن أطرح حولها أسئلة ذات فائدة ، فإذا كنت أواجه ظروفا كثيرة في حياتي لم أحسب لها حسابا ، فإن عبارة إنسان سعيد تصبح مؤقتة لحين زوال الظروف ، أي من الصعب أن نطلقها على إنسان ما ، يواجه الكثير من الظروف في تفاصيل حياته اليومية ، مهما كانت درجة رضاه عن واقعه ، وكل محاولة للقول إن هذا السبب المحدد هو أهم سبب لسعادة الإنسان سوف تكون محاولة غير واقعية ، ورأيت أن البحث عن أسباب السعادة ، ليس بابا مفتوحا ، لأن أسباب السعادة التي قد (نطلقها) ، قد تكون في وقت من الأوقات أسبابا للتعاسة ، والذين حققوا كامل أحلامهم في حياتهم لم يوجدوا على هذه الأرض بعد ، ورحت أسرح في هذا الأمر الذي يبدو لي عظيما ، بسبب نوبات الكآبة التي صارت مثل فيروس يملأ الجو ، قلت في نفسي : صحيح يحتاج الإنسان إلى البحث الدائم عن بديل لواقعه الذي لا يشعر تجاهه بكامل الرضا ، لكن الواقع الجديد أو البديل قد يظل واقعا غير مُرض ، لهذا يفترض في الإنسان أن لا يهتم كثيرا ولا يقلق ولا يدقق ، وهو

ما فعلته فورا ، فهربت من هذا الموضوع ودخلت منطقة أخرى في الذاكرة ، منطقة آمنة وهادئة ، وسرحت في تفكير هاديء ، نزلت من رصـــيف المطعم وواصلت المشي ، وطيف أمي في مخيلتي ، أشعر بالحزن على فراقها أحيانا ، حين أتذكر الأحداث والأسفار والأحزان والأفراح التي تقاسمنا أوقاتها معها ، لكن أيضا ، أشعر أحيانا أنني تحررت قليلا بعد موتها ، ولهذا يدهمني خوف من مجرد الإحساس براحتي بعد وفاتها ، تدهمني وخزة الرعب في روحي لثوان ثم تذهب ، قلت وأنا أتجه للشارع الرئيسي الكبير نحو المقهى : تحررت من هَمّ مرضِها وهي ارتاحت ، ثم واصلت أحاول طمأنة نفسي : لكن لماذا الكذب فأنا أشعر بالتحرر فعلا ، وأحيانا بالراحة وهذا شعور عابر ، لكن نوبة الرعب الصغيرة ظلت تطاردني بخفة ، وهنا نشط ذهني وبدأت أفكر في بعض الأقارب والأصدقاء الذين أنهوا دراستهم وانقطعت عنهم ، ماذا حققوا ، هل عمروا بيوتا ، هل تزوجوا ، هل أنجبوا ، ثم أفكر بقلق في حياتي التي لم تحقق شيئا كثيرا رغم جهدي الكبير الذي أبذله في المكتبة ، ثم يعاودني الشعور أن حياتي مستقيمة وملتزمة ومحتشمة بلا داع ، بدأت أبتهج حين شعرت أنني قد أكون على وشك حياة جديدة ، أريد أن تكون حيوية ومختلفة وورومانسية ، فكرت في أشياء نسيتها منذ زمن طويل ، أشياء لم أعرفها جيدا ، فكرت لماذا لا أداوي همومي ووحدتي بالحب واللعب والسهر ، لماذا

أقصي نفسي عن الحياة ، لكن نوبة الرعب الصغيرة عاودتني فأسرعت الخطو ، نوبة أعرفها تأتي أحيانا كأنها جرس إنذار ، هدأت النوبة فهدأ خطوي ، وعاد طيف سعادة غير صريحة ، في الوقت الذي لاحظت أمامي طفلا يلاحق قطة صغيرة على الرصيف ، توقف الطفل يصلح حذاءه ،لكن الغريب أن القطة توقفت أمامه أيضا غير بعيد عنه والتفتت تنظر إلى الطفل ، الذي أصلح حذاءه وعاود الركض وراءها ، فعادت للهرب منه ، ضحكت للمنظر كأنه مشهد من فيلم ، فقد اندهشت لتوقف القطة كأنها تنتظر من الطفل أن يواصل ملاحقتها . واصلت المشي على الرصيف الطويل ، وأنا أظن باعتزاز أن جرس إنذاري الداخلي ربما هو ميزة خاصة ، خصلة عظيمة غير موجودة عند كثير من البشر ، رغم ما تسببه من قلق ، لأن نوبة الرعب الصغيرة التي تدهمني أحيانا ، تأتي حين أهمل أو أؤجل شيئا مهما في حياتي ، أو أؤذي أحدا أو أنسى شيئا ، أو حين أشعر أن شيئا ما يهدد حياتي ، لهذا أعتقد في بعض الأحيان أنني أتميز بهذا الجهاز الحساس والطبيعي في رأسي ، أو ربما في قلبي ، لا أعرف مكانه على وجه التحديد ، ليس من المهم أن أعرف مكانه ، لكنني أعرف تأثيره القوي على روحي ، إذ تصيبها الرهبة والارتباك بدون سبب ، كما أعرف نوع ألمي المباغت في الروح ، مثل هزة كهرباء حين تلسع أصابع اليد ، أتذكر أن هذه النوبة تطاول روحي حين كنت مراهقا عندما

أرتكب إثماً ما ، لكن حين كبرت قليلا وتوقفت عن ارتكاب تلك الآثام الصغيرة توقفت تلك النوبات ، وصارت تعود لأسباب أخرى ، ولأنني وصلت مرحلة من التجربة ، فقد تجاوزت فكرة أن تأتيني النوبة بسبب الآثام ، حيث أحاول التحرر الآن من عقدة التزمت والآداب المصطنعة ، لأدخل حياة جديدة أكثر إشراقا ومرحا وحبا وآثاما صغيرة لاتضر .

مقهى همس العيون

وصلت مقهى همس العيون ، أخذت طاولة في الحديقة المجاورة للرصيف ، جلست على الكرسي ، لكن فجأة لمحت داوود أبو سليمان بدون سيارته ، يعبر الشارع الكبير دون أن يلتفت للمقهى الذي نجلس فيه عادة ، كان يحمل كيسا أزرق وبعض الصحف ، ويبدو أنه متجه إلى بيتهم من خلال شارع الدائرة الذي يقود إلى فيلا والده داخل الحي ، لكن لأول مرة أرى داوود يعبر هذا الشارع الكبير المزدحم ، ولأول مرة لا يلتفت للمقهى ولا يرد على اتصالاتي ، قلت لصديقنا يوسف صاحب المقهى وكان يرتب الطاولات أمامي : هذا داوود يا يوسف ؟ رفع يوسف رأسه ونظر بالاتجاه الذي أشرت إليه ، قال يوسف : صحيح هذا خالك داوود ، وأنا ظللت أتابع داوود مندهشا وهو يغيب عني خلف السيارات ، جلس معي يوسف ، سألته عن الشاب ناصر الذي يساعده في المقهى ، قال لي يوسف : تعرفت عليه في المقهى كان يحضر أحيانا لمشاهدة

المباريات ، وعرفت أنهم يسكنون في الحارة خلف المحل ، توفي والده العام الماضي ، فانقطع عن الدراسة الثانوية وعمل رجل أمن في البنك المقابل لنا عدة أشهر ، لكنه في إحدى الليالي ذهب مع صديقه إلى سوق الرياض الدولي ، وفجأة قابلهما رجال الهيئة واستوقفوهما ، وفي هذه اللحظة هرب صديق ناصر فلحق به رجال الأمن ولم يعثروا عليه ، فقبضوا على ناصر وسحبوه إلى مركز الهيئة ، قالوا له إن صديقك هرب لأن معه أشياء ممنوعة ، حلف لهم ناصر أنه هرب خوفا من الهيئة فقط ، لكنهم لم يصدقوه وضربوه من أجل الاعتراف أو أن يدل على بيته ، فأعطاهم كل المعلومات عن بيته وبيت صديقه ، وظل يبكي في المركز وارتفعت درجة حرارته ونقلوه متأخرين للمستوصف القريب ، كاد يموت بين أيدهم وهم يتفرجون أو يحققون مع آخرين ، وظل تحت مراقبتهم في المستوصف حتى جاء عمه وأخرجه بتوقيع تعهد ، قلت ليوسف : حرام يا بلد هذا الحقد على شبابك ، طلبت من يوسف كوب شاي بالنعناع ، وأمضيت الوقت أعبث بالجوال ، أنتظر صديقا يقتل وحدتي أو يقلني إلى سهرة باذخة في استراحة أصدقاء جدد .

في هذه اللحظة اتصلت نادية ، سألتني أين أنت ، قلت في المقهى ، قالت ما رأيك أن نلتقي الليلة في المملكة ، قلت لها : ممكن لكن بعد المغرب نؤكد اللقاء . . شكرتها وأغلقت الجوال ، ورحت أفكر بجد في موضوع نادية ، وجدت أن

مشاعري الداخلية حيال نادية بدأت تكون مترددة ، بدأت أضع مسافة بيني وبينها ، وأحيانا أشعر بميل قوي تجاهها فأتصل بها بلا سبب ، المشكلة أنني أرتاح إذا اتصلت بها وأخاف وأتردد إذا اتصلت هي بي ، صرت أتساءل لماذا لم تخبرني بمشكلتها منذ تعارفنا ، لماذا ظلت عدة أشهر غير واضحة ، وجدت أن الطريق مسدود كالعادة ، فانقطع التفكير فجأة ، وتذكرت النسخة الضائعة من رواية داوود ، الملك الجاهلي يتقاعد ، وتذكرت أنني أنسى سؤال تركي عن هذا الموضوع ، بسبب انشغالات سخيفة وبسبب نادية وبسبب داوود أيضا ، على الفور اتصلت بتركي .

قلت له : رجاء ابحث عن أوراق رواية الجاهلية لأننا سنعيد قراءتها من جديد .

قال لي : الورق موجود في الحفظ والصون .

قلت له : الحمد لله . . ظننت أننا فقدناها .

قال : لازالت موجودة في درج مكتب داوود .

قلت له : أرجو أن تعطيها إلى مصحح لغوي من زبائن المكتبة حتى ننشرها في حسابك أو حسابي على الفيس بوك .

قال لي : هي محفوظة في جهاز الكمبيوتر وراجعها داوود قبل فترة وكتب ملاحظات وإضافات .

قلت : ممتاز . . هل أنتظرك في المقهى؟

قال : طيب .

قلت له : قبل قليل اتصلت نادية .

قال : خير إن شاء الله .

قلت لـه : طلبت أن نلتــقي في المملكـة . . تعـــال ندرس الموضوع .

قال وهو يضحك : أنا مشغول .

ودعته وأغلقت الخط ، بينما كنت أفكر جديا في الاعتذار لنادية عن الموعد .

عرفت هذا المقهى حين كبرت فجأة ، وصرت طالب كلية قسم لغة عربية ، في تلك الفترة الممتعة والمرتبكة والمؤلمة ، حين كبرنا في لحظة مفاجئة وسريعة ، أنا وياسر وصالح ، وانتقلنا من الثانوية إلى الكلية ، بعد حياة موجزة وروتينية ، كانت في مجملها داخل الحارة ، بين البيت والمدرسة ومكتبة خالي داوود ، مع الأصدقاء أو زملاء الفصل ، حتى بيوت أغلب الأقارب كانت في حارتنا أو في الحارات القريبة المجاورة ، درست الابتدائي والمتوسط في هذه المدرسة الثانوية نفسها وسط الحارة .

أذكر حين زرت هذا المقهى المسمى همس العيون لأول مرة ، بعد التخرج من المرحلة الثانوية والبحث عن أي كلية عابرة في الطريق ، ذات صيف لا ينسى بصحبة خالي تركي ،

وتعرفنا فيه على ياسر وصالح في إحدى الليالي ، كنت أراهما في المدرسة الثانوية في الحارة ، لكن لم تكن بيننا علاقة قوية ، كنا نشاهد مباراة السوبر الأوروبي في كرة القدم في المقهى ، وبعد المباراة أخذنا جميعا طاولة على رصيف المقهى ، ثم ذهبنا إلى مطعم مجاور للمقهى ، واستمر التواصل بيننا ، بالذات في عطلات نهاية الأسبوع ، صار هذا المقهى مقرا لاجتماعاتنا ، وغالبا ينضم لنا خالي داوود وابن عمه سعود ، وكنا استأجرنا استراحة ليلة في الشهر لكنها لم تستمر طويلا ، ظل المقهى هو المقر الرئيسي لنا ، وفي فترة كانت تضايقني أسئلتهم عن نادية وتعليقاتهم ، كان سعود بلا صديقات ، وإذا تعرف على واحدة لا تستمر العلاقة أكثر من شهر دون أن نعرف السبب ، وياسر غير محظوظ في هذا الموضوع ، كانوا يذهبون جميعا إلى مولات الرياض المشهورة ، سعود وياسر وصالح ، للتعرف على صديقات ، ثم يعودون للمقهى خائبين ويتضاحكون من المواقف التي حدثت لهم ، أحيانا أذهب معهم ، أذكر قال لنا داوود مرة ، إن هذا الموضوع يعتمد على المصادفات وليس على البحث والركض في الأسواق .

سعود شاب بلا اهتمامات وبلا ميول ، قليل الاهتمام بنفسه ولباسه ، عنيف وحاد أحيانا ، اقتصادي في مصروفاته ، ويستقبل تعليقاتنا على بخله بصدر رحب ، وشعوره الداخلي يقول له : علقوا كما تشاءون لكن لا تقتربوا من جيبي ، يخطط

على ورث تركة والده من التجارة ، والده أيضا اقتصادي جدا ولديه خمسة محلات في عدة شوارع مهمة في الرياض ، أفضل ما في سعود روحه الكوميدية ومرحه الدائم ، وأسوأ ما فيه أنانيته التي تتضح في بعض المواقف وتجعلك تكرهه ، بينما ياسر على العكس ، تجده دائما أنيقاً في لباسه وفي أحاديثه ، يحب الموسيقى ويتابع مباريات كرة القدم العالمية والمحلية باهتمام كبير ، أما صالح فهو هاديء جدا وحذر قليل الكلام وكثير الضحك ، لكنه فضولي بشكل مؤدب .

داوود وابن عمه سعود في عمر واحد ، كبرا قبلنا ربما بعامين ، نحن انتقلنا للمرحلة الجامعية وهما انتقلا للمستوى الثالث في الجامعة ، لهذا كانت العلاقة بينهما قوية ، رغم شكوى داوود دائما من سلوكيات وتخلف سعود ، لاحظت أنهما يتخاصمان لكن يعودان بسرعة إلى بعضهما ، وهكذا تعودا على ما يبدو ، حين كبر داوود ودخل الجامعة بدأ يغيب مع سعود عن البيت ، وأيضا عن الحارة بأكملها ، لا أحد يعرف أين يذهبان ، ولا أحد يعرف من أين يأتيان ، كنت أراهما في الشارع أحيانا ، أسلم عليهما وأحلم أن أكون صديقا لهما .

سعود الخبير ، والمجرم الصغير ، تعلم مع داوود قيادة السيارة ، أخذا سيارة والد سعود القديمة خلسة وتعلما عليها ، وصارا يسرحان بها كثيرا ، وتعلما معا أيضا أشياء كثيرة لا نعرفها ، خلال هذه الفترة كنا نزور خالي داوود في المكتبة التي

فتحها بمساعدة والده ، أو نزوره في مجلسه . فتعرفت إلى سعود وصار يأتي للمقهى مع داوود أحيانا ، أنا وتركي نساعد داوود في المكتبة ، نجلس في المكتبة في حالات انشغاله ونتعلم البيع والشراء ونقيم علاقات وصداقات جديدة ، وكانت هذه من أولى نقاط التحول في حياتي ، فمن خلال هذه العصابة الجميلة ، بدأت أبتعد خارج الحارة ، وأقضي عطلة نهاية الأسبوع مع الأصدقاء في مطاعم ومقاه واستراحات وأسواق الحارة والحارات المجاورة .

يسكن خالي داوود في الشارع الموازي لشارعنا ، كنت أرى داوود في بعض مناسباتنا العائلية ، لكن لم تكن بيننا صداقة قوية بسبب انشغاله ، لهذا كانت فترتنا الجامعية الأولى أنا وياسر وصالح عاصفة ، بسبب استسلامنا لمغامرات سعود الغبية ، داوود لم يكن معنا في كثير من الأحيان ، لأن له علاقات واسعة مع أصدقاء وصديقات خصوصا بعد افتتاحه للمكتبة ، بينما نحن في عداد فقراء الصداقات والعلاقات .

تصاحبنا في رحلة تاريخية قصيرة للقاهرة ، داوود وسعود وياسر وأنا ، كانت رحلة متعة وإثارة ، درنا على أغلب الأماكن السياحية ، سهرنا ليلة في الحسين وليلة في فندق الماريوت وليلة في قارب وسط النيل ، وبما أن الملك داوود عاشق للتراث ، فقد اشترى بعض كتب التراث مثل (ألف ليلة وليلة) و(الشعر الجاهلي) لطه حسين ، وكتب عن حياة الجاهلية وشعرائها

وروايات نجيب محفوظ وروايات الجيل الجديد .

انقطعنا عن زيارة داوود في غرفته فترة قصيرة ، بعد أن حدث الخلاف بينه ووالده ، حول موضوع السهر في الملحق والعزف على العود ، وهنا اقترح عم داوود ، أن يأتي ليعيش في بيته مع ابنه سعود عدة أسابيع ، حتى تهدأ النفوس ، وافق داوود فورا ، فأعطاه خاله ، مفتاح ملحق الفيلا بعد أن أثثه وبنى بجواره دورة مياه ، ليسكن فيه داوود ، قريبا من صديقه سعود .

سعود التصق بداوود بشكل مزعج ، حاول تزويج داوود من أخته المريضة ، ثم صار هو وأهله يأخذون من المكتبة مجانا ، لكن بيت سعود تحول إلى ما يشبه السجن بسبب رقابة لصيقة من شقيقه الأكبر سعد ، الذي هرب أولاده وبناته وزوجته من قسوته وإهماله لهم ، وتركوا له البيت وحيدا ، فعاد إلى بيت والده وعاش معهم ، وصار يراقب تحركاتهم مثل جاسوس ، مثل حكومة متخلفة ، لكنهم اعتادوا على هذه الحياة البليدة ، وكانت الضربة القاصمة لسعود ، حين طلب منه شقيقه الكبير سعد البحث عن فيلا كبيرة يشترونها بدلا من هذه القديمة التي قارب عمرها عشرين عاما ، ثم حين أسر له جارهم حمد أن شقيقه سعد ومعهم بعض الموظفين ، هناك احتمال أن يكونوا متهمين باختلاس ملايين من صفقة بين العمل وشركة ما ، وأن مدير المصلحة سكت لأنه مشارك في الاختلاس ، وأن

موظفا في الشركة فضحهم وفضح هذه الممارسات التي تحدث في البلد بكثرة ، قام سعود بنقل ما سمعه من جارهم لشقيقه سعد الذي عالج جرأته بكف صارم على وجهه ، لم يفق منه سعود لمدة أسابيع ، أغمي عليه فورا ، نام في المستشفى عدة أيام ، أفاق فاقدا للذاكرة وأكمل النوم في البيت عدة أسابيع ، كان يشعر حين عاد للبيت أنه مجنون ، لم يكن مسيطرا على عقله بالكامل ، وكان يعالج كل هذا بالضجيج وكثرة الحركة باعتبارها حركة تمرد ، لم يعلم أن شقيقه ترك العمل بعد التحقيق في موضوع الاختلاس ، وتدهورت حالته ، لكن في مرة ، بعد صلاة الجمعة ، تقابل صديقنا الفضولي المتميز صالح مع سعود على الرصيف ، قال له صالح : سمعت أنك ستقتل شقيقك سعد ، قال سعود له : أعوذ بالله . لم يكن صالح يعرف أن سعود فقد جزءاً من الذاكرة ، إلا حين سأله من أنت ، قال له صالح باندهاش : أنا صالح ، قال سعود : تعال معي للمقهى ، قال صالح وهو خائف : عندي مذاكرة . . سلام ، وترك سعود على الرصيف ، بينما سلك سعود طريقا آخر يبحث عن مطعم يتغدى فيه .

لعب سعود وداوود كثيرا ، وسافرا كثيرا ، لكن مفاجآت الحياة كانت لهما بالمرصاد ، حين صعقت الأسرة في ما بعد ، بتكسر سعود في حادث سيارة خارج الرياض ، كان يسير بسرعة مجنونة كعادته ، وهو متجه إلى الدرعية لتجديد رخصة

سير ، فانفجر الإطار الأمامي وتقلبت السيارة بسعود المسكين حتى كاد يفارق الحياة ، وهنا بدأ التغير على داوود والانقطاع عنا وعن العالم ، لهذا وجد داوود في هذه الصدمة خلاصه لكي يفيق قليلا على واقع أن الحياة غير مأمونة الجانب ، قرر أن يمضي وحيدا ، فعاد إلى محله ومكتبته للاهتمام بها ، لكن أحواله النفسية كانت تسير للخلف وتتدهور بسرعة كبيرة دون أسباب واضحة ، قال لي مرة ياسر إن مشاكلات داوود بسبب إدمان حبوب مضادات الكآبة ولم أصدق ، لكنني بدأت أشعر أن خالي داوود يخفي أشياء كثيرة عنا جميعا .

يتذكر داوود بعد تخرجه مباشرة ، مرحلة طويلة من العذاب ، والحوارات العجيبة المؤلمة بينه وبين والده ، في غرفة داوود الخارجية ، التي تحولت إلى ثلاجة مكتومة الأنفاس ، والده الموظف القديم يفتح باب الثلاجة كل صباح مبكر ، فيرى ابنه ممدداً على الفراش ، مدّثراً نفسه ببطانية ثقيلة ، لكنها قصيرة فتبين أطرافه ، وبجوار نومته المتطامنة تجد : منفضة سجائر مليئة ، أكواب شاي فارغة ، جهاز تسجيل تصدح منه بصوت خافت ، موسيقى لعبدالحليم حافظ ، وملف طلب وظيفة ، عليه بقايا أكل ، وكتابات عشوائية . وعليه تاريخ العام الماضي ، ثم تعليق مدير مسئول يفيده أن اسمه في قائمة الانتظار .

يهتف الأب بابنه :

اصح يا عديم الفائدة . .

يرد الابن بنصف يقظة :

ماذا تريدون ؟

انهض . . يا عدو الله

طيب . .

ثم يخرج الأب إلى عمله ، ويعود الابن إلى نومته المتطامنة .

الأب يريد ولده أن يفتح المكتبة أو يبحث عن عمل ، والابن يفكر في الكتابة والفن والأصدقاء ، وهكذا ، في حوار صباحي يومي صغير ، لا يمله الأب ، واعتاد عليه الولد ، حتى صار جزءاً من واجباته القليلة التي يقوم بها ، يخرج الأب من هذه الثلاجة وهو يشعر كما لو أنه أزاح حملاً ثقيلاً عن ظهره ، ويظل الابن ، كل صباح ، يحاول أن يغطي ساقيه المتجمدتين مثل خشبتين .

وفي ضحى البيت الساطع ، الشمس الرائعة تهطل على بهو البيت المفتوح قليلاً .

والأم المبتهجة تقول لجاراتها إن ابنها (العاطل) عن العمل ، تقدم لوظيفة كبيرة ، وإنهم وعدوه خيراً ، ثم تضحك الأم . . وتكمل :

ابني وعدني بتغيير أثاث البيت ، وشراء جوالات جديدة لنا وسفر إلى دبي ، تضحك أيضاً : لقد كبر ، ويبحث له عن امرأة تكمل نصف دينه ، ثم تكتم بكاءً قديماً ، وتصمت ، فهي

تدرك أن ابنها ممدد هناك ، في ملحق البيت منذ أشهر طويلة ، كأنه خشبه لا حراك فيها ، بينما تنبعث من مكانه ، رائحة خافتة جداً لموسيقى عبدالحليم حافظ .

المكان الحر الحلم

استغربت نادية من اهتماماتنا أنا وداوود باللغة العربية والتاريخ ، واندهشت من فكرة الكتابة الجماعية ، لرواية جاهلية حديثة .

كنت قد خرجت مبكرا من البيت في صباح ممل ، اتصلت بها ، واتفقنا على اللقاء في مقهى عائلي في أسواق اليورمارشيه شمال الرياض ، كنت أشعر بشوق لها بعد أن أمضيت عدة أيام أفكر فيها حتى التعب ، وصلنا السوق ثم إلى المقهى مباشرة ، جلسنا على الطاولة .

قالت نادية : أشعر كأنني في حلم . . هل يعقل هذا .

قلت لها : لماذا لا . . تمارين مشوقة لكتابة رواية جاهلية حديثة .

قالت : أقصد أن اهتمامات الشباب هي الكورة والسفر والطرب .

قلت لها : هذه المحاولة تضاف إلى السفر والطرب

والكورة . . ونخطط في المقهى لتنفيذ فكرة مخيم في الثمامة ليومين .

قلت لها : هل تحبين القراءة؟

قالت : أحيانا .

قلت : ماذا قرأت وماذا أعجبك .

قالت : أعجبتني شقة الحرية للدكتور غازي القصيبي .

ثم سألتني : من هو صاحب الفكرة؟

قلت : فكرة ماذا؟

قالت وهي تبتسم ابتسامتها الهادئة : الرواية الجماعية يا أبو جهل .

قلت : قصدك أبا جهل .

قالت وهي تضحك : المهم هو جهل .

قلت : جاءت الفكرة بالتدريج ، من خلال مكتبة يملكها خالي داوود ، وهو عاشق للتراث ، كان يحدثنا عن الجاهلية وعن كتب أخرى تراثية عربية جميلة ، وحكى لنا في إحدى المرات بعض القصص ، وأكملناها مع بعض ذات ليلة حمراء .

قالت : حمراء .

قلت وأنا أفتخر : نعم حمراء تسر الناظرين . . لكن مؤدبة .

بعد المقهى خرجنا من السوق ركبنا السيارة ، أوصلت

نادية ، وعدت للبيت ، قلت سأنام حتى العصر ثم أذهب للمقهى لالتقاء ياسر وصالح لتنفيذ فكرة مخيم الثمامة .

تعرفت على نادية ، في مقهى الشاهي العائلي في شارع التحلية بالعليا ، وعرفت بعد ذلك أن نادية تعرف خالتي سارة من طريق صديقة قديمة .

حين رأيتها أول مرة ، قلت هذه هي ، قلت ذلك حين شعرت بحرارة في قلبي ، وحين لاحظت أنني بدأت أرتبك وأتلعثم وأبدو مثل طفل ، ثم لاحظت بعد ذلك اشتغال خيالي بشكل جعلني أتصور أحلاما خيالية بيننا ، قلت في نفسي : هذا هو الحب ، وعندما لمحت عينيها وقد تركزتا على عينيّ تماما ، في تلك اللحظة الوامضة ، لكن العميقة ، أحسست أنني صرت مثل ضوء يهتز ، شعرت بشيء لذيذ وعظيم هز كياني ، صاحبه شعور بالخجل ، فاضمحلت روحي في مكاني ، وصرت على وشك الذوبان ، كنا في زيارة عائلية لهذا المقهى ، أنا ووالدتي وأخواتي وخالتي سارة ، المقهى على شكل حديقة مقسمة إلى مربعات في الهواء الطلق ، قلت في نفسي إن هذه الأشياء الجميلة لا تحدث كثيرا ، مضيت وخلفي تتناثر ابتسامات خجولة ، لكنني طاردتها ، طاردتها بهدوء قلق ، حتى استطعت أن أقبض على قلبي ، مفعما بالخجل والبهجة المرتبكة ، حين لمحتها تدخل في صحبة أهلها إلى إحدى الجلسات العائلية غير المسقوفة ، فجذبني شيء جميل فيها ،

لا أعرف ما هو ، جلست مع أهلي قليلا أبعثر النكات واللعنات والضحكات ، ثم خرجت ، أمشي باتجاه باب الخروج على الأرض المبلطة بحجر أحمر ، وعلى جانبيه تصطف غرف العائلات ، وفي نهاية الممر توقفت قليلا ، ثم اتجهت إلى باب الدخول للمقهى ، وقفت قليلا هناك ، ثم عدت أتمشى ، فوجدتها تقابلني ومعها بعض الأطفال في الممر ، وقعت الأعين على بعض مرة أخرى ، وفي هذه اللحظة فقط أدركت أن بهجة تاريخية رائعة ، تسجل تفاصيلها الآن على جدار ذاكرتي ، التي أفتخر بقوتها ، توقفت فورا مثل مصدوم وأبقيت عينّي على عينيها ، حتى تجاوزتني ، عدت إلى أهلي في الجلسة العائلية وشربت الشاي معهم على عجل ، لم أستقر في جلستي ، استأذنت وعدت للممر مرة أخرى ، توقفت عند بائعة الاكسسوار ، تلفت ، لم أجد أحدا ، خرجت من المكان تجولت في الشارع خارج الحديقة ، عدت إلى الحديقة ، فوجدتها كما توقعت أو كما حلمت ، تقف أمام ركن الاكسسوار ، لم أتجاوزها بسهولة ، مررت ببطء وهدوء ، لكن قوة النداء الداخلي ، جعلتني على غير عادتي ، أكسر خجلي وأتوقف ، ثم أعود لركن المحل ، لأقول بما يشبه الهمس بعد أن اقتربت منها قليلا : كيف الحال قمر ، بصوت كأنه ليس لي ، ثم أقلّب في قطع الاكسسوار لأداري خجلي ، لكنها لم تمهل خوفي وارتباكي ، فقد كان رد فعلها رائعا ، جعلني أنتعش

وأشعر بالنجاح حين ردت بهمس : أهلا ، دون أن ترفع عينيها عن البضاعة المعروضة ، هنا شعرت أن أبوابا كثيرة انفتحت في طريقي ، كانت البنت واقفة مع الأطفال أمام المحل ، ولمحتها قبل أن أغادر تقلّب عقدا فضيا ، تركت المحل خطوات ، لكنني عدت ، وفي يدي ورقة صغيرة فيها رقم هاتفي الجوال واسمي ، مددت الرقم وأنا أقول لها : آسف للإزعاج ، أخذت الرقم بحذر ، ثم تركت المحل فورا ، وتركتني في حال من القلق والابتهاج .

في المساء اتصلت بي ، أجبت على هذا الرقم الجديد ، ومن أجل أن أكون أكثر بساطة ، قدمت شكري فورا على اتصالها ، ثم أعطيتها رقم الهاتف الثابت ، وطلبت منها الاتصال حالا ، أغلقت الجوال ، ليشتعل صوت الهاتف الثابت بالنداء الجميل ، رفعت السماعة وفي الحال ، قلت لها : الثابت مريح وغير مزعج ، قالت : صحيح ، قلت لها : أعتذر عن إزعاجك في حديقة الشاي ، قالت : عذر مقبول لكن لا تكررها ثانية ، أربكني الرد وضحكت ، قلت لها : من يعرفك لن يكررها ، سألتني : لماذا أردت التعرف عليّ ، قلت : وجهك البسيط فيه شيء شدني للطفولة .

قالت : وماذا بعد؟

قلت : عيناك .

سألتها عن اسمها .

قالت : نادية . .
سألتني : وأنت؟
هل اسمك هو وليد المكتوب على الورقة .
قلت : نعم .
وأضفت : أنا جاد جدا ولست صاحب لعبة عابرة .
سألتني بارتياح : ماذا تفعل الآن؟
قلت : لا شيء لكن في مثل هذا الوقت قبل النوم أقرأ الجريدة .
قالت : هل تتابع المسلسل التركي؟
قلت : لا .
قالت : لماذا أنتم الرجال لا تتابعون هذه المسلسلات الجميلة؟
قلت : لا أعرف .
قالت : الجميع يتابعونها ماعدا أنتم . . هل تنقص الرومانسية حياتكم؟
ضحكت وقلت : لا أظن لكنها مسلسلات طويلة جدا .
قالت : أختلف معك لأني أشعر أن أغلب الرجال لدينا لديهم مفهوم سيء عن الرجولة .
قلت : أتفق معك لكن ليس الجميع بهذا الشكل .
قالت لي : ما الذي جعلك تتذكر طفولتك حين رأيتني؟
قلت : في صغري أعجبتني ابنة أقرباء لنا ، وهم جيران

أيضا ، أحببتها لأنها علمتني كيف أنفخ بالونة من العلك .

قالت بسخرية : وبعدين؟

قلت بإحـراج : هي كـبـرت وتزوجت . . وأنا كـبـرت ولم أتزوج .

قالت : هل سارة قريبة لك؟

قلت متفاجئا : سارة خالتي . . هل تعرفينها .

قالت : نعم كانوا جيران وهم أقرباء من بعيد .

قلت لها : يفرحني هذا الخبر . . لأني أحب خالتي سارة .

قلت : بلغها سلامي .

قلت : حاضر .

بعـد أسـابيع من مكالمات جس النبض ، أعطتني وصف مكان عملها ، كان قريبا من بيتنا ، فانطلقت إلى حي غرب البديعة بعد المغرب ، حيث تعمل في بنك للتدريب ، كانت تنتظرني عند الباب .

ركبت وهي تقول : السلام .

قلت : عليكم السلام .

ثم سألتها : كيف حالك؟

قالت : تعبانة .

قلت : ألف لا بأس يا أم المؤمنين .

قالت وهي تضحك : شكرا .

قلت : أين تريدين أن نذهب؟

قالت : على كيفك .
وأكملت : إلى أي مكان جميل .
قلت : للأسف الأماكن الجميلة قليلة في الرياض .
قالت : أي سوق .
قلت : ما رأيك في مطعم العائلات في أسواق المملكة؟
قالت : طيب .
قلت : توكلنا على الله .
قالت : بارك الله فيك ، وهي تضحك ضحكتها الصغيرة المعتادة .

وصلنا العليا ، صعدنا السلم الكهربائي للدور الثالث ومن ثم اخترقنا ملاهي الأطفال الصغيرة نحو الكافتيريا العائلية المجاورة للملاهي ، المكان واسع وفيه طاولات مفتوحة ، وطاولات داخل غرف تحيط بها سواتر خشبية ، جلست نادية على كرسي عند إحدى الطاولات ، وأنا ظللت واقفا ، سألتها ماذا تشرب .

قالت : أي شيء .
قلت : ما رأيك في شاي بالنعناع؟
قالت : أوكي .
ذهبت وأحضرت كوبين شاي .
جلست فوجدتها تستمع لأغنية ، خلعت السماعة ، وقالت مشكور .

سألتني : تحب هذا المكان؟ . .

قلت : لا . . أنا والأصدقاء نذهب إلى مقهى همس العيون القريب من السوق الدولي .

قالت : أعرفه . . نمر من عنده دائما .

قلت : ربما رأيتني هناك قبل أن نتعارف .

قالت : يمكن .

ثم سألتني : ماذا تفعلون في المقهى؟

قلت : نكتب حكايتنا الجاهلية .

قالت : كيف .

قلت لها وأنا أحرك السكر في الكوب : أنا والأصدقاء في المقهى كتبنا رواية بعنوان الملك الجاهلي يتقاعد .

قالت : فكرة حلوة . . رواية جماعية .

قلت لها : الصديق داوود أبو سليمان أوحى بالفكرة ثم كتبها ونحن ساعدناه ببعض الفصول الكوميدية .

قالت : ما حكاية الرواية؟

قلت : تفاصيل كثيرة .

ضحكت نادية وقالت : ممتاز .

قلت لها : وأنت ما هي حكاية تعبك؟

قالت : يعني . . لا تهتم .

قلت : لو سمحت أريد أن أعرف .

قالت هل تريد أن تكتب حكايتي مع أصدقاء المقهى .

قلت : لا طبعا . . لكن صار يهمني أمرك .

قالت : شكرا .

قلت : أيضا أريد أن أتعرف عليك .

قالت بهدوء وهي ترشف من كوب الشاي : أنا من عائلة كبيرة جدا من حيث العدد ، نشأت في حي البديعة ، يوجد به عشرة بيوت متجاورة لوالدي وأشقائي وأعمامي وأخوالي وأزواج أخواتي ، لكن هذا التجمع العائلي تهاوى ، هذه العائلة الكبيرة جدا تهدمت مثل جبل سقط سهوا .

ضحكت من وصفها وقلت لها : أنت بارعة في الوصف . . قالت : شكرا .

قلت لها : وكيف سقط الجبل بهذه السهولة؟

قالت تفرق الجمع بطريقة عادية ، بمعنى كل عام أو عامين نسمع أن هناك من باع بيته وغادر ماعدا والدي وعمي هما الوحيدان الباقيان في الحارة وبقيا فيها حتى ماتا .

قلت : وما هي مشكلتك؟

قالت : حكايتي أني أشعر بالملل وتشابه الأيام .

قلت لها : نحن جميعا نعاني من هذا في مجتمع محدود الاهتمامات .

قالت : أنتم تقودون السيارة وتذهبون للملعب وللبر وتسافرون .

قلت : فعلا . . مع ذلك هي مملة وقليلة الخيارات . . لكن

أشعر أن عدم قيادة المرأة للسيارة لدينا تعبر عن حالة مرضية .

قالت : صحيح . . مرض مزمن يحتاج للكي .

ضحكت من طريقتها في التعبير .

قلت لها وأنا أضحك : ربما الموضوع يحتاج حركة شعبية وليس مظاهرة نسائية صغيرة ومرتب لها .

قالت : صحيح . . لكن أنا أحلم بفكرة مجنونة .

قلت : ما هي؟

قالت : العمل في الإمارات .

قلت : صعب .

قالت : أعرف . لكن أحلم بمكان حر أعمل به .

وهكذا تواصلت بيننا المكالمات واللقاءات القليلة . . لكن انشغالنا بالدراسة جعل العلاقة والتواصل في أوقات متباعدة .

كوميديا الحبوب المهدئة

في العصر توجهت للمقهى ، بعد نومة طويلة ، ثم غداء سريع ، كان يوم غائم وممطر وجميل ، اتصلت بالعصابة فعرفت أنهم سبقوني للمقهى ، وجدتهم هناك ، أخذوا طاولة على الرصيف كالعادة ، ياسر وصالح وتركي ، وعلى الفور بدأت اتصالات صالح ، صديق البراري والمخيمات ، لاستئجار مخيم في الثمامة نقضي فيه عطلة نهاية الأسبوع ، لكن فجأة حضر سعود وأفسد البرنامج ، قال لنا وهو واقف : بعد قليل ستنطلق مباراة مهمة في كرة القدم بين فريقي حي البديعة وحي العليا ، ضروري نحضر لتشجيع فريق حارتنا ، وأكمل يشجعنا على الحضور : هناك شاي وعصائر ومتعة كرة قدم وكل ما تشتهون ، قال ياسر : عندنا مشروع مخيم في الثمامة ، قال سعود فورا : بعد المباراة ، باقي من الوقت نصف ساعة فقط .

التفتنا لبعض ولم نجد قدرة على معاندة سعود ، انطلقنا أنا وياسر في سيارة صالح ، وسعود بسيارته أمامنا ليدلنا على

الطريق ، وتركي اعتذر وعاد إلى بيتهم . وصلنا العليا ، وكانت المباراة قد بدأت ، وجدنا مدير فريق نجمة الملز يجلس على سجادة كبيرة ويتفرج بحماسة على المباراة ، لأن الفريق الفائز هذا اليوم سوف يلعب مع فريقه على النهائي غدا ، وكان أمامه ترمس كبير من الشاي ، حين رآنا وقف هذا الولد المشهور الذي يعرف صديقنا سعود ، سلم علينا بصمت وبسرعة كأنه مسئول كبير ، ثم جلس ، لكني لاحظت أن مدير فريق نجمة الملز هذا ، كاد أن يسقط وهو يحاول الجلوس ، ترنح قليلا ثم استعاد توازنه .

اسمه أحمد أبوراس ، أكبر منا ربما بثلاث سنوات ، أبيض ونحيف ووسيم ، لكن واضح أنه ابن عائلة غنية جدا ، يأكل الحبوب ويشرب الشاي بكثرة ، وينظر إلينا بصمت ، في البداية كانت تخيفني نظراته ولهذا ركزت على المباراة ، وصرت أختلس له النظر معجبا بشخصيته ، وأغبطه على هذا المنصب ، رئيس نادي الحارة ، شيئ جميل مثل الحلم ، ولاحظت أن هناك بجانب هذا الولد المدير ، ويميل عنه للخلف قليلا ، ولد صغير طويل وأسمر ، يصب له الشاي ، هذا الولد يجلس إلى جانب أحمد أبو راس كأنه ظله لينفذ طلباته ، حين جلسنا كان مدير فريق نجمة الملز يوجه اللاعبين بحماسة ، وصديقنا سعود يصب لنا الشاي اللذيذ ، دفعني سعود بمرفقه لكي أرى الحبوب التي على المنديل فلم أفهم ، قال بصوت خافت : الحبوب ، لم أنتبه لأني كنت أتأمل أبو راس ، أتفرج على حركاته وطريقة

كلامه وأسرح كثيرا ، لكن سعود غضب مني ونظر إلي بعيون حادة ثم نظر إلى المنديل فانتبهت ، وبعد قليل لاحظ أبوراس أننا ننظر إلى المنديل الذي على الأرض ، منديل أبيض سميك عليه حبوب من نوعين ، حبوب بيضاء وحبوب برتقالية ، وفي هذه اللحظة قال أبوراس لصديقه سعود : الحبة اليوم صارت بعشرين ريالا ، وعاد يتابع المباراة .

قال سعود له : هل تذكر حين كانت بعشرة؟

قال أبو راس : هذا كان أول .

هنا تأكد لي ولياسر ولصالح أن مابين أبوراس وسعود يتعدى المباراة ، ربما تاريخ طويل من الفساد .

أخذ أبو راس من على المنديل أربع حبات ورماها على سعود .

أنا وياسر وصالح ، كنا نتابع كل هذا باندهاش وعيون تتحرك فقط ، بالذات صالح الذي يضحكني خوفه واندهاشه من كل شيء .

قال سعود لأحمد أبو راس : تسلم ياريس .

ثم أعطاني سعود ثلاث حبات ، وأومأ بأن أعطي البقية حقهم من المعونة التي هبطت من السماء ، وأنا بدوري أعطيت ياسر حبتين ، واحدة له وأخرى لصالح .

قلت لسعود : ما هذه؟

قال : حبوب مهدئة .

قلت وأنا أضحك : الله يهدي أحوال المسلمين .

قال : هل تريد النتيجة سريعة أم بطيئة؟

قلت : كيف؟

قال لي : انتبه يا أبا جهل . . إذا كنت تريد مفعولها بطيئا وبلا مرارة في الطعم ، أبلع الحبة واشرب معها الشاي أو الماء ، وإذا أردت نتيجة سريعة افتح الكبسولة بهدوء وضع مسحوقها المر في كأس الشاي .

ثم قال : هل فهمت يا أستاذ متخلف .

ضحكت وقلت له : نعم .

قال سعود : إذن . . أخبر أبا جهل الثاني الذي يجلس بجوارك وأيضا رفيقه .

وعلى الفور التفت إلى ياسر وأنا أضحك .

سألته : هل تريد النتيجة بطيئة أو سريعة؟

قال ياسر : سريعة .

أخذت منه الكبسولة وفتحتها ووضعت مسحوقها في كأسه ، وحذرته من مرارتها .

لكنه رد على الفور : هات الكأس يا تعبان ، ثم شرب كل ما في كأس الشاي دفعة واحدة ، وأنا فعلت مثلما فعل ياسر ، لكن صالح قال لنا إنه ابتلعها وشرب خلفها الشاي ، وأنا شككت في ذلك ، ربما رماها في جيبه أو في أرضية الملعب ، فأنا أعرف حركات صالح .

بعد لحظات ، شعرت بمرارة الكبسولة في حلقي ، وشعرت أيضا بدبيب وتنميل في أطرافي ، وما يشبه الدوار في الرأس ، والرؤية معتمة وكأن الجو في حالة ضباب قوي ، لاحظت على يساري أصواتاً دون أن أرى أحدا بشكل واضح ، كان سعود منهمكاً مع مدير فريق نجمة الملز أبوراس في حوار عقيم وسقيم عن المباراة ، ومن هو الفريق المؤهل للفوز ، بينما على يميني ياسر وصالح لا أكاد أراهما ، كأنهما هناك في البعيد ، ياسر يتحدث ربما مع نفسه ، أو ربما يتحدث مع صالح وأنا لا أسمع بوضوح ، ياسر غير واضح المعالم ، وصالح كان على وشك الاضمحلال ، ويبدو أن ياسر متورط مثلي في هذا الخدر ودوار الرأس وعدم القدرة على الكلام ، كل ما أستطيع فعله هو النظر بهذه العيون المندهشة ، أو التفكير في أشياء كثيرة دفعة واحدة ، حيث اشتعل الذهن بشكل كبير ، وبدأت أتذكر نادية ، وأتذكر ترددي في الزواج منها وشكوكي تجاهها ، هل أنا صح أم خطأ ، وبدأت ألوم نفسي ، كيف أتهرب من هذه الإنسانة الجميلة ، وشعرت أنني أحبها بجد حين تيقنت أنني أحتاجها في هذه اللحظة لإنقاذي .

لازال التنميل في أطرافي مع شعور غريب أنني بلا يدين ولا قدمين ، مددت يدي باتجاه ياسر ، لمست كتفه ، قال بتثاقل : نعم ، قلت له : أبداً . . ما فيه شيء . لكن لازال الشعور الغريب يكبر بأني فقدت اليدين والرجلين في معركة وهمية ، تلمست رجلي وقدمي ، وفرحت حين وجدت هذه

الأشياء في مكانها ، فقلت الحمد لله ، وضعت يدي بين فخذي فلم أجده ، حركت يدي ذات اليمين وذات الشمال حتى وجدته نائما في زاوية من اللبس الداخلي ، قلت : ليس معه حق أن ينام ويتركني في هذه الظروف الصعبة .

اقتربت من ياسر وأخبرته ، قال لي وهو متضايق : أقسم بالله أنك فاضي ، لهذا أنا صَمَتُ مكسور الخاطر ، كان ياسر يظن أنني أمزح ، لم يعرف أنني مهموم ومتورط مثله ، تلفت أبحث عن صالح لكن لم أجده ، في هذه اللحظة استلقيت على ظهري رغما عني ، رقدت على ظهري نصف رقدة ، ولاحظت يد سعود تمتد وتنتشلني من حفرة كنت أظن أنني سقطت فيها ، وهنا سمعت أبو راس يقول لسعود : لا تحضر هؤلاء الأطفال مرة أخرى ، وأظن أنه كان يعنينا أنا وياسر وصالح ، فتألمت في داخلي ، لأنني كنت أتوهم أنني كبرت ، بينما الواقع الآن يقول إنني لا زلت صغيرا أمام أبو راس ، كنت أريد أن أقول له إنني أمزح حين رقدت على ظهري ، لكن لم أستطع النطق بكلمة واحدة ، وفجأة جاء الحل ، وجدت صالح يحضر في الوقت المناسب ، أخذنا بصعوبة ، أنا وياسر ، كنا نحاول توديعهم لكن لم نستطع ، أركبنا السيارة ، وفي الطريق إلى بيوتنا انتابتنا ، أنا وياسر ، موجة ضحك غريبة ، لا نعرف على ماذا ، وكان صالح يضحك علينا بهدوئه المعتاد ، أوصلنا بيوتنا ثم لاذ بالفرار .

تمارين حلم اليقظة

دخلت البيت بخطوات حذرة بعد أن خف مفعول تلك الحبة المهدئة أو المنومة أو المنشطة ، لا أعرف وظيفتها بالضبط ، دخلت غرفتي وأغلقت الباب والستارة وأنا أشعر بخوف غريب ، حاولت النوم ولم أستطع ، بعد ساعة غفوت غفوة مرتبكة ، موجزة ومكثفة ، الأحلام تتداخل ، والدخان لايزال في رأسي ، والحبة أشعر أنها لازالت في فمي ، في حين يحاول حلم اليقظة الجنسي أن يبعد النوم كثيرا ، ويجعل المنطقة التي أسفل بطني تؤلمني ، لهذا دائما ما أحول موجة حلم اليقظة إلى السينما ، حاولت تأليف فيلم عن حياتي مع نادية التي خذلتني ، بدأت تأليف الفيلم وخلال دقيقتين كان الفيلم جاهزا للعرض ، فجأة ينقطع التفكير ، فتتحول الموجة إلى كرة القدم ، لكن لماذا هذه العلاقة بين الحبوب والأفلام والنساء وكرة القدم ، لماذا هذا الرابط بينهما مغروس في العقل الباطن والظاهر ، وهنا عاد الصوت الغامض الخفي الملعون الذي يهز

روحي ، كـأنه يؤنبني على آثامي ، صـوت كـأنه يأتي من تلك الأعـمـاق القـديمة في روحي ، يأتي في لحظة سـريعـة ، يهـزني ويصيبني بلحظة رعب سريعة ويمضي ، فأشعر بعده بصعوبة في التنفس وحـالة رعب صـغـيـرة وتأنيب ضـمـيـر ، عـادت أيضـا الرائحـة المزمنة ، رائحـة الدخـان ، شـمـمـتـهـا وهي تنبـعث من صدري ، شيء يشبه شواء شعر الماعز مثلا ، شعرت أنني كائن على وشك الاحـتـراق ، ركضت إلى الحـمـام ، دخلت وخلعت مـلابسي ، وقفت تحت الدش فتحت الحنفيـة ، اندفع الماء باردا لذيذا على رأسي ، وبدأت أنظر من خـلال المرآة الكـبـيــرة في جسمي ، جسدي الذي لازلت أشعر بالفخر كلما رأيته عاريا هكذا ، هذا الجسد الذي قالت أمي إنه صورة من جسد والدها القوي الشامخ ، مثل جسم رياضي ، عريض الصدر ومتناسق ، لهذا لم أستطع طرد فكرة أو أتخيل أن يكون بجواري الآن امرأة عارية تقاسمني مساحة هذا الحمام المغري ، وربما هذا أفضل من التفكير في أوضاع الأمة ، فهذه الأوضاع حين تحاول الاقتراب منها بفوضاها المعروفة قد تصيبك بصداع مزمن مثلا ، أو حتى وضعك الذي لا يحتاج إلى دراسات لكي تفهمه ، لكن إلى القليل من المال ، نعم امرأة جميلة ، ثم تطلق أغنيتك عاليا ، تسـيـر خلفك وأنت تمضي بهـدوء في هذا الطريق الموحي والعذب ، موسيقى هادئة لذكرى أو ميادة مثلاً ، لكي تضيف على هذا الجو الشاعري كثافة وعمقا وشحنات من شجن ، أو

لنقل امرأة بدأ جسدها ينهض ، بنت تليق بشاب طيب مثلي ، لكن فكرة تصور أو تخيل جسد فتاة نهض من أرضه الخصبة الآن ، تبدو مسلية وممتعة ، وقد أفصح هذا الجسد عن رائحة دافئة ولذيذة ، وعن نهدين صغيرين ، وجسد ترغب أن تمرر أصابع يدك الباردة على كامل تضاريسه ، بدءا من العنق نزولا إلى مساحة الصدر ، ثم النزول الى . . . وهنا توقفت ، فالمشكلة أن الخيال سوف يظل خيالا ، وتربيتي قد لا تسمح ، لهذا لابد أن يرتطم رأسك بحائط الواقع أو حائط هذا الحمام الماثل أمامك . . في هذه اللحظة ، رأيت الماء داكنا تحتي ، فأصابتني رجفة قوية من هذا المنظر ، ماء داكن فعلا له لون التراب ، كأنه ماء غدير سيل في البراري ، إنه لون عشر سنوات مضت من حياة أشبه بالفيلم السريالي والكوميدي ، حياة لم تكن جادة تماما ولم تكن هازلة تماما ، ربما كانت تدّعي الجدية ، قلت وأنا أنظر في الماء الداكن الذي أصبح جسدي يعوم فيه : ربما هذا لون أثآمي ، قلت إنني لم أؤذ أحدا في حياتي ولم آكل مالا فاسدا ولم . . . ، وسرعان ما تغير كل شيء ، حين رفعت غطاء تصريف الماء في المغطس فانطلق الماء الداكن يتجمع قريبا منها حتى نظف المغطس تماما ، أغلقت فتحة التصريف ثم فتحت الماء الدافيء ، الذي غمرني بعد ثوان بلون صاف لا شك فيه ، فارتحت مستلقيا داخل الحوض ، وبدأت أحصي مكاسبي وخسائري القديمة من حياة الغموض

واللهو والعبث ، وحين هدأت أكثر وارتحت لكل النتائج الجميلة التي توصلت إليها ، والتي هي في الحقيقة واضحة جدا ، مثل : تورد خدي وارتياح نفسي ، كل هذه نتائج لا تحتاج إلى شك في أن هناك شيئاً ممتازاً يحدث في حياتي وأنا غافل عنه ، الآن أعود إلى مائي الدافيء مرة أخرى متحررا من كل شيء مع الشعور المتجدد والمتكرر بأني إنسان جديد ، الآن هذا هو الحمام الذي لعبت فيه طفلا ومراهقا ، وارتحت فيه ليال طويلة في الطفولة ، لهذا أتذكر ذلك المساء الحزين المؤلم الذي خرجت فيه من الحمام عاريا ، خرجت حين شعرت أن القدر قذفني مثل رصاصة خارج الحمام بكامل جسدي المراهق ، والماء يقطر من جسدي ، وقد كان من المفترض أن ألبس شيئا يسترني ، أو أخطف فوطة وأنا أركض خارجا ، في طريقي إلى الصالة ، هذا ما كان مفترضا ، لكن الواقع يأتي خلاف ما نفترض ، حيث إن صرخة قوية من أختي ، حين أغمي على والدي ، نزلت كالصاعقة على رأسي ، وكنت أظن أن نارا اشتعلت في ملابسها ، والمؤسف أننا نظن دائما أننا نجيد التصرف في المواقف الصعبة ، لكن حين تدهمنا هذه المواقف على حين غرة ، نكتشف أن عقولنا قد طارت من رؤوسنا ، ونتصرف على أساس أننا بلا عقول ، وهذا ما حدث لي في تلك الأمسية الملعونة ، فبينما كنت كعادتي ، أستمتع بقطرات الماء وهي تنساب على جسدي الجميل ، سمعت صرخة أختي ، وفي

تلك الثانية من عمر الزمن ، توقف تفكيري وصرت جسدا يتحرك بلا دليل ، فخرجت من الحمام عاريا أركض للصالة ، وجدت والدي على الأرض ، فركضت لثلاجة صغيرة في ركن الصالة ، أخذت قارورة ماء كبيرة ، فتحتها وسكبت ما بها على وجهه ورأسه ، وحين وجدت أنه بدأ يفتح عينيه ويتنفس ، اكتشفت أن والدتي تطوق وسطي بفوطة حمراء كبيرة ، فحضنت والدي وأجلسته في حضني ، ثم استلمته أمي بمساعدة أختي ، وأنا ركضت إلى غرفتي أستر عورتي .

هنا انقطع تفكيري فجاة أيضا محاولا الهرب من الذكريات السوداء ، وبدأت أفكر بهدوء وعمق في حياتي وأحوالي ، وفي ظروفي وفي ترددي ، ومن منا لم يفكر في الحمام في وضعه المادي وأحواله وأحوال أهله ، من منا لم يرتكب هذا الفعل غير المخل بالآداب ، صحيح أنني حين أفكر في هذا الأمر سوف أكون عاريا كما ولدتني أمي ، لكن بين جدران أربعة لا يراني سوى الرب سبحانه وتعالى ، ولهذا فليس من الجرم أن أفكر في أحوالي المتدهورة أو الجميلة مثلا ، أو أن تخطر في بالنا جميعا وخيالاتنا صور لذيذة نستمتع بها في أوقاتنا السيئة .

خرجت من الحمام مرتاحا بعد هذه التخاريف المعتادة ، وجدت أنني غير جاهز للنوم ، كنت أشعر كالعادة ، أنني في حاجة إلى فعل شيء ما ، كنت غامضاً حتى التعب ، بالأحرى ، تائهاً ، وكنت على يقين كبير ، بأن أية خطوة خارج

البيت للبحث عن وظيفة تساعدني في ظروفي هي خطوة بائسة وتعسة ، ومحض عبث ، وقلت في نفسي إن العمل في مكتبة داوود يكفيني الآن ، لكنني لست بليداً لأنني أبارك ساعاتي ، وأتلو عليها أغنياتي ، أشعلت الموسيقى وبدأت في عمل أشياء كثيرة ، نظفت غرفتي وراجعت أوراقاً قديمة ، لكنه يتعذر عليّ ألا أكون متعباً وقانطا ومكسورا ، رغم أني أستطيع إقناع نفسي بجدوى أي عمل أقوم به ، وكنت أهجس بأشياء كثيرة ، كتبت وقرأت وأشعلت نار التاريخ ، للغة المخنوقة الأنفاس ، ذررت رماد الأشياء ، فالتمعت شهباً وأقماراً ، بينما تصدح موسيقى ، وكنت أبدو كما لو أنني أريد أن أجلد نفسي بالتعب ، عقاب ذاتي موصول صحيح وعميق حتى النسيان ، كانت إيقاعات الموسيقى ترتفع عذبة وغامضة ، أطرافي تتركان كل شيء تتمايلان ببطء ، صوتي بنبرة واهنة يرتفع قليلاً مع إيقاعات الموسيقى ، رفعت الصوت متجاوباً مع هذه الحالة الجديدة ، وسرعان ما بدأ جسدي وأطرافي ، كما لو أنها ترقص ، رأيت ذراعاي تتمايلان ، تعانقان فضاء الغرفة بنزق ، وأطراف أقدامي في حركات دائرية موصولة . وكنت كلما أتم دورة ، أبدأ في أخرى ، مقنعاً نفسي أنه ربما حان الوقت ، بعد هذا الانتظار للرقص ، وارتفعت حدة كل شيء ، بدأ جسدي ينزف العرق ، وبدأت أشعر بنشوة الفعل ، أذرع فراغات الغرفة ، أتمايل بشكل جاد ، وصريح ، مع إيقاعات موسيقية غامضة

وأصابع قدمي تلامس بخفة ورشاقة أرضية الغرفة ، وجسدي يتثنى بفرح جاد ، شعرت أنني أريد أن أعيش هكذا ، متمتعاً بهذا الوقت ببذخ شديد ، حتى سمعت صوتاً في الخارج ، ولكنني ، في ذروة المجد ، أتظاهر كما لو أني لا أسمع سوى الموسيقى ، الموسيقى فقط ، توقفت وارتحت أغني في ظلام خفيف ، دون بهجة ، ومصحوبا بخوف شفيف ، لم أكن أرغب التخلص من تلك الحالة الموسيقية ، لذلك قلت لنادية ، أريد أن أحبك هكذا بكل بساطة ، بكلمات لم تقل حتى الآن ، وبنار لم تشتعل حتى الآن ، وبرسالة لم تصل من أحد ، ثم إنني غنيّت بكلمات غامضة ، الظلام يلف الغرفة ، لا يهم إذا كان الظلام ظلامي أو ظلام الأغنية أو ظلام الخوف القديم الذي يربض في صدري ، لكن الحجرة ، هكذا بلا مقدمات ، سقطت بجدرانها الورقية على كلمات الأغنية ، في مشهد سينمائي مؤثر ، وأنا استسلمت لنوم يقظ ، موت مبكر ، محروماً من كل ذكرياتي ، ومنذ ذلك الوقت تركت عادة الغناء في الظلام ، قررت الإفصاح عن مشاعري دائماً في الهواء الطلق ، أمام الناس ، حتى لا أموت مرة أخرى ميتة مجانية ، بلا جماهير ، فلماذا أحبس أنفاسي وخوفي في صدري ، وأنا أشعر أن الكرة الأرضية بكامل تفاصيلها ، تسكن في صدري .

راعي الأغنام

بعد هذا التمرين شعرت أنني ربما جاهز لغفوة طيبة ، كنت في المنطقة الوسطى بين يقظة ، وغفوة مستعصية ، حين رأيت أنني وسط ساحة كبيرة معروضا للبيع بالمزاد ، كنت وسط الزحام أفتش عن عسكري يحميني من جشع هؤلاء التجار ، حتى وجدته أخيرا وناديت عليه ، لكن العسكري تجاهلني ، كأنه لم يسمعني ولم يرني ، قلت في نفسي : ربما أن أحد هؤلاء التجار من معارفه ، انتظرت أن يسرح أحد هؤلاء الذين يقبضون على يدي ، لكي أطلق ساقي للريح ، انتظرت طويلا لكن دون فائدة ، حتى استجاب العسكري ورأيته يقترب من المكان ، وكانت الصدمة ، حين سألهم : بكم هذا الآدمي ، وهو يشير عليّ ، فقررت أن أمثل دور الحمل الوديع حتى يثقوا بي ، أغمضت عيني كأنني نائم ، وفجأة استيقظت فوجدت نفسي في مكان والظلام العميق يحيط بي ، قلت أين أنا ، رفعت رأسي ، وحين رأيت بصعوبة باب الحمام المفتوح ، ويخرج منه

نور ضـــئـــيل ، تذكــرت أين أنا ، في هذه اللحظة أظن أنني اقتـربت من النوم ، غـفـوت غـفـوة لذيذة ، وأنا ربما كنت أهجس بذكرى قديمة ، كنا خرجنا بصحبة الأهل إلى البراري القريبة ، غــرب الرياض في طريق مكة ، رأيت شــابا يرعى الغنم في الصحـراء ، مـشـيت خلفـه من البـعـد ، أرقب الشـاب وأرقب قطيعـه بدقة ، ظللت أرقبه وهو متـجه للنزول بالقطيع إلى واد صغير مليء بالعشب والشجر ، استرحت على صخرة واطئة ، وفي لحظة غامضة رأيت أن من يرعى الغنم هو أنا وليس أحدا سواي ، صدّقت الفكرة وشعرت أنها تجربة حقيقية أعيشها ، وجدت الفكرة تتلبسني واقعا غير مشكوك فيه ، فنزلت بالقطيع إلى الوادي ، وظللت هناك قـرابة السـاعـة شـبـه نائم ، حـتى شـــبـــعت الأغنام وأوشكـت الشـــمس على الغـــروب ، قلت لأغنامي : حان وقت العودة ، علينا من الآن أن نسعى للخروج من هذا الوادي اللعين ، الذي يصدر أصواتا غريبة ، كنت متعبا جدا بسبب قوة أشعـة الشمس ، لكنني تحاملت على نفسي ، توجــهت إلى مـؤخــرة القطيع ، وبدأت أدفع الأغنام للخــروج والصعود إلى أعلى ، إلى الصحراء الواسعة ، بدأت الأمور تسير كمـا أريد ، وتوجه الحشـد الحيواني الرائع نحو منصـة الخروج ، وهو منحـدر يشبـه البوابة ، وبدأت الحيـوانات وبالذات الخراف والشياه تصعد فعلا إلى الأعلى في منظر مهيب ومبهج ونبيل ، بينمـا كـانت فـئـة التـيـوس والماعـز تقـوم في الطريق البطيء

للصعود ، بحركات مشاغبة ورقص ليس لها داع ، ولم أكن في حالة تسمح بتقبلها ، وفي واقع الأمر ، أرى أن الشبع أصابها بنشوة جعلها تأتي بحركات تشبه الرقص ، وهي في نهاية الأمر حيوانات ، علينا أن نصبر عليها قليلا ، هكذا حدثت نفسي ، وأنا أحاول قيادتها برفق نحو الأعلى ، لكن هذه الحركات غير المقبولة من التيوس بالذات ، أبطأت من عملية النفير ، وأفسدت خارطة الطريق ، للخروج الآمن من هذا الوادي المتخلف ، كانت التيوس والماعز تتقافز هنا وهناك أو تتناطح ، أو تصعد المرتفعات الصغيرة على جانبي الوادي ثم تنزل بحركات بهلوانية غريبة ، جعلتني أدعو الله لها بالشفاء من هذه الحالة الهستيرية المتخلفة ، فهذا ليس وقت المزاح والعبث ، حاولت تأديبها ولم أستطع ، ركضت وراءها لكي تلحق بالقطيع المؤدب من الخرفان والشياه ، لكنها كانت في ذروة الحالة الهستيرية ، وإمعانا في الأذى الذي سببوه لي ، رأيت تيسا صغيرا يصعد جبلا صغيرا ثم يجلس هناك في غار واسع على قوائمه الأربع ، كأنه يستعد لتصوير لقطة من فيلم ، في الوقت الذي كانت فيه بقية التيوس والماعز على وشك الهدوء خوفا من عصاي الطويلة ، وبدأت تأخذ طريق الخروج ، أخذت حصاة ورميت بها التيس الصغير ، فرأيته بكل سخافة وبرود يتأمل الحجارة بصمت ، قلت له انزل ولم يرد ، كان فقط ينظر في وجهي بلا اهتمام ، رميت عليه حصاة أخرى فاكتفى بمراقبة الحصاة وهي

تتدحرج جواره ، في هذه اللحظة كان حولي ماعز صغيرة تدور وتلعب ، فكرت أن أرسلها له لإخراجه من الغار ، فخشيت أن تعجبها الفكرة وتمكث معه هناك ، قلت لايوجد حل سوى أن أصعد إلى هذا المتمرد السخيف ، صعدت بصعوبة ، وصلت بعد تعب إلى الغار ، أمسكت أذن التيس بيدي اليمنى ، حرك التيس رأسه فانزلقت أذنه من بين أصابعي وفلتت ، ربما بسبب تعرق يدي ، مسحت يدي في ملابسي حتى أصبح كفي أكثر خشونة ، أمسكت أذنه اليسرى بيدي اليمنى من جديد ، حرك التيس رأسه بقوة ، ثم اداره للخلف بعنف ، لكن كفي ظلت متشبثة بالأذن فاضطر التيس للوقوف على قوائمه حتى لا تلتوي رقبته ، وقف ونزل معي وهو صاغر ، وفي ذروة هذا النجاح العظيم ، انتبهت فوجدت نفسي مستلقياً على الصخرة ، والناس يبحثون عني في البراري القريبة .

وخزات سرد خفيفة

صحوت متأخرا ، ربما بعد المغرب ، رميت تعب السهر والقلق ، لا أعرف الوقت الآن ، كنت أشعر بمزيج البهجة والحزن مع حالة موسيقية عالية وجدت أنها تملأ روحي ، ومعها كلمات أعرفها تشبه وخزات سرد خفيفة ، وكنت أشعر بأرواح حولي تتمشى في زماني ومكاني ، لكني أجّلتُ أحزاني وذاكرتي ، أجّلت غيضي ، وربيت شجني مثل أرنب صغير ، أجّلته وربّيته ، صار شجني حزنا عميقا ، وصار غيضي غصنا طويلا له ظل عارم ، يغطي فناء بيتي ، صارت أشجاني وقهري مثل ريح خجولة ، لكنها غاضبة ، تريد أن تدور ، مثل امرأة تبحث عن حب مفقود .

أجّلتُ شجني صغيرا وكتمته كبيرا مثل غيض ، مثل حلم ، كتمته ومزجت معه بهجة سرقتها من رصيف مجهول وخرجت في وقت ممتع ، كانت فيه شوارع حارتنا هادئة وقليلة النور ، كنت أمشي على رصيف الشارع الصغير ، ذاهبا إلى المخبز

القريب ، ثم إلى بقال جواره يبيع سجائري ، وجدت على الرصيف المظلم بهجة صغيرة ضالة ، كانت مثل قطة هائمة أو مثل فكرة قصة ضائعة ، التقطتها فأصابتني بنشوة عالية ، جعلتني أتحدث مع نفسي مثل فاقد .

سألت صديقي الخباز عن أحواله ، قال : سأبيع المخبز لهذا الأفغاني الذي أمامك ، وأغادر إلى وطني ، كان علي خالد ، يمسح عرق جبينه بفوطته الحمراء القديمة ، وكان يحكي لي عن أولاده ، الذين يعيشون بؤسا وخرابا في شوارع وطنه ، وأنه يريد أن يلمهم في قبر واحد .

قلت له : ونحن أيضا نعيش في فوضى شوارعنا وحياتنا ، نحن جميعا نعيش حزنا وخرابا وغيضا وبؤسا ، نعاني الوقت المهدور ، ونعاني بهجات مسروقة أو محرمة ، في شوارع أهدرت أحلامنا .

ودعت علي وأخذت الخبز ، ثم ملت على البقال ، أخذت سجائر لليوم والغد وما بعد الغد ، فربما تمنعني بهجتي الصغيرة من الخروج في الأيام القادمة ، قال لي عامل البقال الباكستاني أجمل الزمان ، هل تريد شيئا من البطحاء ، قلت مثل ماذا يا أجمل ، قال : أي شيء ، ثم غمز لي غمزه خفيفة ، كانت مثل بهجتي الضالة أو المسروقة ، قلت : شكرا يا أجمل الزمان ، ودعته ومشيت إلى بيتي ، وصلت سالما معافى ، ومصحوبا بتلك البهجة الصغيرة التي وجدتها في طريقي على الرصيف

المظلم ، كانت مثل قطة هائمة أو مثل فكرة قصة ضائعة .

في البيت مكثت مع بهجتي الصغيرة وقتا ثمينا ، ثم كتبت فصلا من قصة طويلة غامضة ومظلمة ورطبة ، عن أرواح قريبة ميتة ، أراها وهي تطل على روحي ثم تقترب وتتمشى في زماني ومكاني ، وعن الإنسان الميت الذي في داخلي ، وعن إنسان آخر فوضوي وغاضب يريد أن ينهض من مكانه ، كنت أقطر عرقا ، وكنت أشعر بتناقض عميق يهز وجداني ، فهل وأنا الميت ، الذي أصابته الصدمات والصفعات باليأس ، مازلت أنا ، أم أنني الغاضب الذي يريد أن يخرج كائنا ثالثا سواهما .

توقفت ، قلت في نفسي وأنا أنظر في جدار بارد أمامي ، لو كنت في مدينة أخرى ، وخرجت إلى البقال والخباز مشيا على الأقدام ، ربما صادفت على الطريق رصيفا أخضر أو وجهاً حسناً أو دار سينما ، طردت هذا الهاجس الذي أصابني بالملل ، وأنا أشعر أن قلبي صار مثل قطة ضالة ، تبكي في زاوية لها رائحة قديمة ، قلت وأنا الميت والمهزوم ، إن وقتي صار عادة خاملة ، وحياتي صارت مثل كيس خبز يابس ، أو تمر قديم ، تلمسه فينفجر في وجهك غباره .

سرحت في مكاني ، وكنت أشعر أنني أنام في برية واسعة بعيدة ، وحولي منازل طين قديمة واطئة تنبعث منها موسيقى قديمة لها رائحة أعرفها ، وفيها مشاعر أكاد ألمسها ، من وحي قصائد شعر جاهلي ، أو ضحكات سكارى

متخلفين ، وأحيانا أشعر بهم قد بدأوا حروبهم ، فتطأ نومي حوافر خيولهم الراكضة بلا دليل . وفي الصباح أجد روحي مضروبة ، وذاكرتي مثقوبة ، ومزاجي فاسداً ، وحلقي محتقناً ، وجسمي حاراً . قلت أرمم ذاتي المضروبة والموبوءة والمحتقنة ، مثلما رممت ، على مدى عقود ، وقتي الذي صار مثل عادة خاملة ، وحياتي التي صارت مثل كيس الخبز .

سأرمم وقتي المضروب بوخزة من ماء السماء ، وقبلها بتفاحة ، ثم بحمام بارد ، أنفض فيه كيس التمر المغبر ، مشاريع مؤقتة للترميم ، قد تبدأ الآن ، لكن قد يمتد التأجيل لحين يخف ثقل أطرافي ، ويعود لذاكرتي جزء من روحها المفقودة ، غبت في خدر لذيذ ، وأنا أشعر بتنمل أطرافي ، كنت أتحدث بصوت عال مع جاري ، قلت له أعذر انقطاعي عنك يا صديقي ، فأنا أنام باكرا وأصحو باكرا ، لكن فجأة رأيت بجانبي بنتاً تتحدث مع صديقتها ربما ، كانت بجانبي ، وكانت تحرك يديها أحيانا ، وأنا أواصل حديثي مع جار صامت ، وفي لحظة غريبة لمست يدها جسدي ، فتحركت أشياء متلذذة بتلك الحركة العفوية ، بحثت عن جاري لم أجده ، التفت فلم أجدها أيضا ، ولهذا قررت أن أبحث عنها ، أذكر أني رأيتها في سوق غير واضح المعالم ، ذات خميس ، ربما أتذكر المحل الذي تذهب له عادة ، سأنتظرها هناك ، سأقول لها : أنت حبيبتي الغائبة ، سأشتكي لها وأقول إنني حزين جدا وإنني كل يوم أفقد شيئا

من ذاتي ، وأفقد احترامي لذاتي الصامتة ، سأقول إني أفتقدك دائما ، وإنني أتذكر لقاءات قديمة عابرة مختلسة ، وأذكر ضحكتك العفوية التي تنطلق ببراءة وسحر ، سأعترف لها أن روحها الدافئة ضغطت على أرواحنا ، ضغطت كفان ناعمتان على وجنتين صحراويتين ، فتفجر الرأس ماءً وأعشاباً ونخلاً وذكرياتٍ ولهواً ودوداً صغيراً ، وسأقول إنني ما زلت أراك تقفين هناك بعيدة عن العيون ، عندما التقينا وتحدثنا وقلت لك إنك لست المرأة الوحيدة في هذا العالم التي تبكي كثيراً ، وتنام قليلاً ، لست المرأة الوحيدة الجميلة ، التي لا تمشط شعرها ولا تقلم أظافرها ، ولا تستمع إلى الموسيقى .

شعرة الرأس الملعونة

بدأت مــشكلة نادية تتكشف ، حين التـقــينا في مطعم العليا ، اقتربت مني في لحظة غريبة ، اقتربت فشعرت بدفء جسدها يدنو مني ، اقتربت حتى شعرت أنني على وشك أن ألمس أو أعانق أنفاسها اللذيذة ، لكنها في لحظة خاطفة ، مدت يدها ، وقطعت شعرة من رأسي ، ثم وضعتها في فمها ، كانت لحظة غامضة ومخيفة بالنسبة لي ، حاولت أن أضحك باعتبار أنها تمزح ، لكن حين ابتلعت نادية قطعة الشعر الصغيرة ، صدمتني الحالة ، سألتها بجدية وخوف عن سبب ما تفعله ، قالت : حتى لا أفقدك ، سألتها كيف ، قالت : حتى تبقى لي إلى الأبد ، كانت صدمة ، لكنني لم ألحظ عليها شيئا ملفتا قبل ذلك سوى إعلاناتها المتكررة أنها متضايقة ، كانت تشتكي من أشياء كثيرة ، وكنت أحاول أن أبسط الأمور لها ، مثل كل الحالات التي تبدو طبيعية ، كانت مرحة تبهج المكان ، وكانت حيوية تنعش الوقت ، وكنت سعيدا بها ، كنت أراها موهوبة لم

تجد الفرصة ، لاحظت أنها تحب الموسيقى والأفلام وتجيد اللغة الإنكليزية ، لكنها محبطة ولم تكن مرتبة في حياتها ، ولهذا غرقنا سوية في أحلام اليقظة ، والبيت الحلم ، ونسينا أمراضنا المزمنة التي لم نتعرف عليها ، لم أتوقع أن تضطرني الظروف بعد ذلك لمعرفة كل أنواع الحبوب المهدئة الموجودة في الصيدليات ، ولم أتوقع أن أكون صديقا للصيدليات التي عرفت كل أسمائها في شوارع الرياض ، لم أتوقع في يوم من الأيام أن تكون أحلام اليقظة هي البديل الحي لواقع ممل ومريض بالفوضى والتمثيل والفساد والحبوب المهدئة .

قالت : كل البنات يستخدمن الحبوب المهدئة . .

سألتها : كل البنات؟

قالت : أغلبهن .

قلت : البعض؟

قالت : صحيح .

قلت : لماذا؟

قالت : لا أعرف .

وأنا ، سكت قليلاً أفكر في هذا .

قالت بعد قليل وهي تبتسم : الناس تعبانة .

قلت : من ماذا؟

قالت : من الملل والفوضى .

سألتها : الفوضى .

ضحكت وقالت : قرأت هذا في تويتر .

قلت . . وماذا قرأت أيضا في تويتر؟

قالت : إحدى صديقاتي كتبت : بدلا من زراعتكم للأحقاد والكراهية ازرعوا حشيشاً يبسطنا .

قلت لها : لقطة مضحكة .

وضحكنا جميعا .

فكرت بجدية في الأمر وتذكرت أقارب وأصدقاء لي اختفوا فجأة ، وبعد سنوات تأتي أخبار متقطعة عنهم ، اكتئاب ، فصام ، وسواس قهري ، تشدد ديني ، إدمان كحول أو مخدرات ، وتذكرت شكاوى ، من أن مستشفيات الصحة النفسية قليلة ولا تواكب زبائنها الذين تضاعفوا عشرات المرات في السنوات الأخيرة .

بدأت أتفهم كلامها ، وبدأت هواجس كثيرة تعمل في رأسي ، هل أنا مريض أيضا وأنا لا أعرف ، ما حكاية الدواء المسكن للسعال الذي أشربه لكي أنام ، وما معنى هذه العصبية والعنصرية والتخلف التي تلف حواراتنا وعلاقاتنا وحياتنا .

نادية ظلت مثل شريط سينمائي سريع ، مع بعض اللقطات العميقة التي تحفظها الذاكرة ، لقطات أحيانا بسيطة وعادية ، لكن الذاكرة تحفظها سنوات طويلة ، ولقطات كنا نظن أنها مهمة جدا ، تسقط من الذاكرة وتغيب شيئا فشيئا ، حتى تتلاشى ، مواقف مهمة لم يبق منها في الذاكرة شيء ، بينما

تظل المواقف البسيطة والعادية ، التي التصقت بشكل غريب في الذاكرة سنوات طويلة ، حين تحولت إلى حياة أخرى تسير معنا إلى الأمام ، فما كان هامشيا في حياتنا تحول إلى شيء حقيقي ومهم في الذاكرة ، وأثبت الزمن أنه الحقيقي والمهم ، وما كنا نراه مهما وضخما وجوهريا في حياتنا ، تلاشى واختفى من شاشة الذاكرة ، وبالكاد نستطيع تذكره ، حكايات بلا رابط مهم سوى محاولة الاقتراب من العادي والمألوف في حياتنا .

عـــرب

في مسـاء اليـوم التـالي كنت مـتعبـا ، ذهبت إلى مقـهى همس العـيون ، أخـذت طاولة على الـرصـيف ، وسط الحـديقـة الصـغيـرة ، طلبت شـاي النعناع وصـحن بطاطس ، كـان المقـهى مـزدحمـاً على غـير العادة بالشـبـاب ، بسـبب مبـارة نهـائي في الـدوري الإيطالي ، في هذه اللحظة وصل داوود ، وجلس على الكرسي المقابل لي ، كانت هيئته مضحكة ، يلبس ثوبا جديدا وغترة جديدة ، وأنا كنت خائفا أن يكون عرف بحكاية الحبوب في ملعب العليا .

قلت له مشجعا : ما هذه الحركات الجميلة يا أستاذ داوود .

قال لي : تعال معي في مشوار . . حضور زواج عائلي مختصر .

قلت له : والله إن المقهى أفضل .

قال : تذهب معي نصف ساعة فقط .

وأضـاف مـتـحـمـسـا : الزواج قـريب في الحـارة وأنا ملزم أن أحضر .

قلت له : حاضر أيها الملك الجاهلي .

شارك داوود معي في القضاء على صحن البطاطس ، ثم انطلقنا في سيارته إلى بيت الزواج ، وصلنا المكان ، كان عبارة عن فيلا صغيرة وزواج عائلي لأقارب من بعيد ، استقبلنا الشباب عند المدخل ، ثم دخلنا المجلس ، سلمنا على كبار السن ثم خرجنا وجلسنا في المجلس الثاني الصغير مع شباب يعرفهم داوود ، انتظرنا قليلا حتى نادوا على العشاء ، ذهبنا جميعا إلى صالة الأكل ، جلست بجوار داوود ، وحين بدأنا تناول العشاء ، رأى داوود قريبه وجاره ، يجلس بجانبنا على المائدة ، وهنا بدأت فصول المسرحية ، حيث استمتعت في هذه الأمسية البليدة بالحوار المضحك بين دوواد وجارهم .

وكان هذا الجار خفيف الدم ، قد بدأ ، بعد التحية بالقول لداوود وهو يبتسم :

والدك ياداوود كان رجلا طيبا لا يترك الصلاة .

قال داوود : والمعنى . . .

قال الجار وهو يواصل الابتسام : كيف . . والمعنى . .

قال داوود : الزبدة يعني .

في هذه اللحظة أنا ضحكت . . .

التفت إليّ الجار التفاتة سريعة حين ضحكت ، ثم عاد إلى داوود وهو ما زال يبتسم وقال له : لا نراك في المسجد يا ولدي .

ثم أكمل : وأحيانا أسمع معازف تخرج من غرفتك المجاورة لمنزلي .

قال داوود باستغراب : معازف .

قال الجار : نعم . . هل تريد أن تعيدنا إلى حياة الجاهلية؟

قال داوود : لا زلنا في الجاهلية ياصديقي .

قال الجار : قل يا أخي . . ولا تقل يا صديقي . . هداك الله .

قال له داوود : أنا أيضا لا أراك في المسجد .

ضحك الجار وقال : أنا موجود ولا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد .

قال داوود : المسجد ليس جاراً لنا بيننا وبينه شوارع عريضة وأنا أعمل في مكتبة الوالد .

قال الجار بضحكة جميلة هذه المرة : وهذا أعظم للثواب . . يا أبا جهل .

قال داوود وهو يضحك : هداك الله ياشيخ .

بعد قليل سأل الجار داوود بهمس موح : سمعت أنك تريد أن تبيع بيتكم . . أقصد بيت الوالد؟

قال داوود : غير صحيح .

قال الجار : كيف غير صحيح وأنت كنت عند عبدالحق تعرض بيتكم للبيع؟

قال داوود : لا أعرف عبدالحق ولم أعرض البيت للبيع .

قال الجار : عبدالحق قال لي إنك كنت في مكتبه عصر أمس .

قال داوود : عبدالحق .

قال الجار : أمس أنت كنت في مكتبهم العقاري العيون الناعسة المجاور لمقهى همس العيون .

قال داوود : هل تراقبني أنت؟

قال الجار : لماذا أراقبك يا أخي؟

قال داوود : لكن لم أعرض البيت للبيع ، فقط سألت عن أسعار البيوت .

ضحك الجار وقال : نعم هذا مكتب حبيبنا عبدالحق إذا لم تكن تعرف .

قال داوود وهو يضحك : العيون الناعسة هذا ، يصلح اسما لمحل بروستد وليس مكتب عقارات .

انطلقت ضحكة الجار الشيخ مجلجلة . .

وقال : سأخبر عبدالحق باقتراحك .

وأضاف الجار : فكر في أمر بيع البيت ، وقلل من المعازف .

قال داوود : حاضر يا شيخ عبدالحق .

ثم نهض الجار مودعا . . وهو يبتسم .

قال لي داوود بهمس : هذا الجار دمه خفيف ، لكن أحيانا يكون مملاً وتافهاً .

وأكمل داوود : سمعت أنه أقنع بعض صغار الحارة

بالذهاب إلى الجهاد من أجل الحور العين .

ضحكت بجد في تلك اللحظة . .

قال لي داوود : لاتضحك . . هذه جريمة .

قلت وأنا محرج : فعلا . .

خرجنا من بيت الزواج ، ركبنا سيارة داوود ، واتجهنا إلى المقهى ، كانت فرصة لأتحدث مع داوود عن حكاية الملك الجاهلي يتقاعد ، سألته هل يرغب في طباعتها ، ضحك داوود وقال : هذه محاولة ليست للطبع وأريد منكم أن تقرأوا النص وتضيفوا عليه ماتشاءون لكن دون مبالغات أو تكلف .

في المقهى وجدنا سعود وياسر ، جلسنا معهما ، واقترح داوود أن نكمل الجلسة في بيته ، فانطلقنا كل بسيارته ، دخلنا الملحق وجلسنا فأخرج داوود زجاجة قديمة .

قال سعود لداوود : ملابس جديدة وروائح عود أصلي .

قال داوود : أنا دائما هكذا يا أبا جهل .

قال ياسر : إذا تزوج داوود سأذبح خروفاً .

قال داوود : بخصوص موضوع الزواج ، كان لي موقف كوميدي من سنوات طويلة ، كنت أنا وابنة عمتي في عمر واحد ، وكنا نتنافس في درجات الاختبارات المدرسية في المرحلة المتوسطة ، في تلك اللحظة التي كبرت فيها ، ذات صيف حين نجحنا من الصف الثاني إلى الثالث المتوسط ، قمنا بزيارة بيت عمتي بصحبة والدتنا ، كنت فرحا بالنجاح ، لكن

الصدمة حين فتح لنا زوج عمتي ، رحب بنا عند باب البيت ، أدخل والدتي وأخواتي ، ثم التفت لي وهو يضحك وقال لي : لقد كبرت يا ولدي ، لا تدخل مع والدتك للبيت . . البيت فيه بنات ، تعال أنا وأنت إلى مجلس الرجال ، كنت محرجا من الموقف ، مشيت خلفه ، دخلنا البيت ، ثم دخلنا المجلس ، جلست على الكنب ، بوجه أحمر خجول ، جلس معي زوج عمتي قليلا ، ثم تركني ودخل البيت ، ويكمل داوود : كنت أسمع أصواتهم تصلني من الداخل ، يرحبون ببعض ، وسمعتهم يسألون عني فشعرت في داخلي بسعادة كبيرة لا يمكن وصفها ، وحين سمعت والدتي تقول لهم إنني في المجلس ، ابتسمت وأنا أنظر إلى الجدار الصامت أمامي ، كنت أشعر بالسعادة لأنني كبرت ، وبالخجل من الموقف ، حيث إنني بدأت أشعر في تلك اللحظة ، أنني منفي في هذا المجلس الواسع وحيدا ، لهذا خرجت بهدوء من المجلس ، فتحت الباب وخرجت إلى الشارع فشعرت بالحرية تملأ روحي ، وكلما تذكرت هذا المقطع في حياتي أضحك بعمق ، ويكمل : بعد ذلك حفظت مقاطع جميلة من قصيدة ابن زيدون : أضحى التنائي بديلا من تدانينا ، ثم قرأ لنا مقاطع من القصيدة .

وهنا سأل ياسر داوود عن معنى كلمة الجاهلية ، ومن أين جاءت كلمة عرب ، وما هي أجمل حكايات التراث التي قرأها ، قال داوود : بعض حكايات ألف ليلة وليلة والمواقف

والمخاطبات للنفري ، وقصة حي بن يقظان وقصة ابن زيدون وولادة بنت المستكفي ، وكتاب ترجمان الأشواق لابن عربي ، وحكاية مقتل ملك العرب في الجاهلية عمرو بن كلثوم على يد عمرو بن هند ، هذه من أفضل ما قرأت .

وعن أصل كلمة عرب قال داوود : إن الأصل مختلف عليه ، وهناك الكثير من الاراء حول الموضوع ، لكن عدداً كبيراً من العلماء يعتقد أن كلمة «عرب» مشتقة من أصل سامي قديم ، مشتقة من الكلمات العبرية : «أرابا» ، وتعني الأرض الداكنة ، أي المغطاة بالكلأ ، ويُشير هذا المعنى إلى حالة اجتماعية قائمة على التنقل والترحال وراء موارد العشب . «إرب» ، ومعناها الحريّة وعدم الخضوع لنظام ما ، أو «عابار» ، بمعنى التنقل من مكان إلى آخر ، عرابة ، بمعنى الصحراء ، حيث إن الساميين في الماضي كانوا يتحدثون لغة واحدة ، ثم انقسمت إلى عدة لغات منها العربية والعبرية ، لكن مع ذلك مازالت تتشابه بعضها مع بعض ، وخير مثال على ذلك التشابه الواضح ما بين اللغة العربية والعبرية لغة اليهود الحالية .

وقال داوود : وممكن تكون عرب منسوبة إلى يعرب بن قحطان وهو أول من سجع بالعربية ، والعربية منسوبة إليه وهي مشتقة من اسمه .

سأل ياسر : لماذا لم تكتب الشعر؟

قال داوود ، أنا أستمتع وأتسلى ولم آخذ الموضوع بجد ،

لهذا لم أكتب سوى قصص قليلة جداً .

قال سعود : هل تذكر شيئاً؟

قال داوود : العام الماضي كنا في قريتنا نحضر زواجاً عائلياً ، وفي الليلة الثانية بعد الزواج ، خرجنا للبر المجاور لبيوت أعمامي مشيا على الأقدام ، في رحلة عائلية مسائية ، وضعنا فرشة كبيرة وقضينا الليل في البر ، كان الحديث في تلك الفترة عن التشدد والإرهاب وأمريكا وإسرائيل ، حيث كانوا يضربون بشدة في العالم العربي ، وأنا كنت أحاول ترتيب الأحداث في ذهني أو أقول رؤية ، ولم أكن أقصد كتابة قصة .

وأكمل أبو داوود : قلت لهم : إنه بعد احتلال الحرم من المتشددين دينيا ، انغلق المجتمع على ذاته ، في صندوق أسود ، عظيم الأسرار ، وغرقت المرأة في سواد هائل ، لا نعرف كيف كانت تتنفس من خلفه ، وصارت الموسيقى حراما ، يتم الاستماع إليها في البراري خلسة ، أو في غرف مغلقة ، وبعد غزو الكويت ، انفتح جزء من الصندوق ، فشممنا رائحة موسيقى خفيفة ، تنبعث من أبواب مواربة لبيوتهم الحزينة ، وخرجت المرأة من بعض عتمتها ، مكسورة الروح ، فارتفعت عصا الوعاظ عالية ، تطاردنا في كل مكان ، وبعد أحداث سبتمبر ، انكسر باب الصندوق الأسود ، فتفرق الجمع ، هربت امرأتنا من بؤسه ، وهرب الواعظ إلى الإرهاب ، وبدأت أشياء أخرى تتحرك ، بدأت بوادر انطلاق تحرك الشعب العربي ضد

الحكام الطغاة والفاسدين مع مواقع التواصل الاجتماعي الجديدة ، على إيقاع موسيقى حرة ، فانهمرت الأسرار الرائعة ، لأرواحنا الجميلة ، التائقة للجمال والحرية والمرأة والفن والسفر والإبداع ، الآن كل شيء جميل ينهمر ، في عالمنا الكبير هذا ، سوى حرية الرأي .

في هذه الفترة كان داوود قد أكمل مقاطع طويلة من حكاية جاهلية أو رواية ، أسماها : الملك الجاهلي يتقاعد ، وقرأ علينا بعض فصولها ، فرحت بها والشباب ضحكوا وعلقوا على العنوان وعلى بعض المقاطع ، وياسر أضاف بعض الأفكار للفصل الرئيسي ، كان الحوار طويلا حول هذه الحكاية ، وقدم داوود لنا مقترحات ثمينة لإكمال فصولها وركز على أهمية أن تكون الإضافات بلا تكلف أو مبالغات ، قال له تركي : لماذا لا ننشر هذه القصة في صفحتك فيس بوك ، قال له داوود : أنشروها في أي مكان ، رغم أنها لم تكتمل ، فهي نص مفتوح على الحياة ، يمكن الإضافة له في أي وقت .

وفي هذه اللحظة ، نهض تركي ، جلس على مكتب داوود ، فتح صفحته على الفيس بوك ، ونشر فصولاً من روايتنا ، أو رواية داوود أبو سليمان ، الملك الجاهلي يتقاعد ، بعد ذلك تفرق الجمع ، في منتصف الليل ، بعد سهرة تراثية حداثية جميلة .

فصول من رواية الملك الجاهلي يتقاعد

(١)

ينام الملك الجاهلي النجدي الكِندي ، الحارث بن عمرو ، قبل منتصف الليل ، حين تحط النجمة اللامعة رحالها فوق رأسه الأصلع تماما ، يصحو في الضحى ، حيث يشرب على الريق دورق الماء الدافيء ممزوجا بالعسل والثوم ، ثم تفاحة ، ثم يدخل على كأس الخمر فورا ، لكي يعرف كيف يدير مملكة كندة قي نجد .

في السابق ، قبل أن يكون ملكا ، كان صاحب الجسد القصير والسمين والعينين الصغيرتين مثل حبتي زيتون ، يتناول دورق الخمر في الصباح مباشرة على الريق ، لكي يعرف كيف يدير تجارته وكيف يصطاد النساء ، لكن زوجته سهيلة بنت ماء السماء ، بعد أن أصبح ملكا ، درّبته على أن يأكل شيئا قبل الدورق الملعون ، الذي حوّله في ما بعد إلى ما يشبه كيس تمر قديم ويابس ، أو إلى حيوان مريض أو حزين لا يتحرك كثيرا .

ورث ملك كندة في نجد الحارث بن عمرو ، عن والده عمرو

بن حجر ، مملكة كندة في نجد ، وهي في الأصل إمارة تابعة لكندة الملوك في جنوب جزيرة العرب ، ورث أيضا عن والده القوة والشجاعة والتسلط . كان في مملكة كندة ساحة كبيرة تدعى ساحة حجر ، في جانب منها تقع قصور الحكومة ، وفي جانب آخر سوق لتجارة الخضار والفواكه والمواشي والخمور والسجاد الفارسي ، وكانت يحيط بها بيوت حجرية أو طينية لكبار الأمراء والتجار ، وفي خلف هذه البيوت تجد مخيمات كندة ، إذ أقام سكانها منصات لسهراتهم واحتفالاتهم ولقراءة أشعارهم ، بينما ظلت الساحة مكانا يرتاده الجميع للتسوق والترفيه والتواصل بين الناس ، حيث يوجد في أحد أركان الساحة الواسعة المشهورة ، حانة ملاصقة لمطعم شواء في الهواء الطلق .

يحضر كل صباح إلى ديوان الملك ، شقيقه عروة بن عمرو ، الحرامي سابقاً ، ومعه أخبار المملكة ، والأخبار الواردة من الممالك المجاورة ، لكي يضع شقيقه الملك الحارث بن عمرو ، في صورة ما يحدث كل يوم ، الرقع مكتوب عليها ما تم إنجازه وما هو على قيد التنفيذ ، وفيها أيضا شطحات خيال قاطع الطرق سابقا ، المدعو عروة ، حيث يحاول تأليب الملك دائما على الشاعرة خولة بنت ربيعة ووالدها ، خصوصا بعد أن فسخت خولة خطوبتها منه ، حين عرفت ، أن الحرامي القديم لازال يقبع في داخله ولم يستطع التخلص منه ، كما لم يستطع التخلص

من روحه العدائية تجاه الناس ، لهذا كان عروة يحاول دائما الاستئثار بالقرارات المهمة ، من أجل أن يرفع غلته من السرقات ، خصوصا بعد أن أعطاه الملك صلاحية واسعة وأوكله بالعمل ومتابعة شؤون المملكة ، ولهذا ، ومنذ ذلك القرار ، تحول إلى أكبر تاجر مواش في سوق كندة نجد .

(٢)

كـان ملك كندة الحـارث بن عـمـرو ، قـد بلغ السـتين من عـمره ، حين لاحظ أن مملكتـه الهـادئة قـد بدأت تهـتز داخليـا وخـارجـيـا ، ولـم يكـن يظن أن هذا اليـوم سـوف يأتي بهـذه السـرعـه ، فـهـذا القلق الذي بدأ يزوره ، والنوم الذي غـادره إلا قليـلا ، كلهـا عـلامـات على أن هناك شـيـئاً مـا يتـحـرك ضـده شخصيا ، وضد مملكته التي يرى أنه أبدع في صنعها وتطويرها ، وتثبيت أركانها سنين طويلة ، هو ومن سبقه من أجداده الملوك السابقين لكندة الملوك في نجد ، بينما يرى أغلبية الشعب ، أنها مملكتهم وديار أجدادهم ، لكنه سلب خيراتها وأوقف نموها .

قبل سنوات قليلة كـان الملك يرى الابتسامـات تقـابله في كل مكان ، وكـذلك قـصـائد المديح ، لكـن منذ أعـوام قليلة ، بالذات بعد حادثة سجن والد الشاعرة خولة بنت ربيعة ، وبعد حادثة فساد مشروع السد ، بدأ الشعب يشعر بالغضب ، وبدأ الملك يشعر بالإرتباك وبالخوف .

عاشت مملكة كندة سنوات عامرة بالهدوء وبلا أحداث كبيرة ، تهدد الملك شخصيا أو تهدد مملكته ، عدا بعض المناوشات والحروب الصغيرة التي ردت بعض الغزوات أو النزوات ، التي كان تقوم بها بعض القبائل الصغيرة على مملكة كندة في نجد ، وربما أن موقع مملكة كندة في نجد ساعدها في صد الكثير من الغزوات ، حيث تقع في منطقة مرتفعة في هضبة نجد ، تحدها اليمامة جنوبا ووادي حنيفة شمالا ، الذي يعد أكبر واد أو نهر وسط نجد ، واد كبير تصب فيه مياه الأمطار طوال العام ، وتحيط به الرياض الخضراء من كل جانب .

ويقع بيت ملك كندة الحارث بن عمر في الركن الغربي الواسع من وادي حنيفة ، حيث يقع قصره العائلي المبني من الحجر والطين ، تحيط به الغابات والأشجار والحدائق من كل جانب ، بينما تقع على جوانب المكان ، مخيمات كبيرة وبيوت حجرية موزعة هنا وهناك ، لأقربائه وعائلاتهم ، بينما هناك على رأس الوادي يقع قصره الثاني المخصص للسهرات والنساء والشعر ، وهذا البيت الذي يقع في جبل مطل على الوادي ، يضم عشرين غرفة ، وسط باحة واسعة ، تتوسطها بئر وبركة ماء ، وخيمة كبيرة ، وخارج هذه الدار مساحة واسعة محاطة بأسوار الطين وضع فيها آلاف الرؤوس من الإبل والأغنام .

عاش الملك على عرش كندة حوالي عشرين عاما ، كان شابا في الأربعين حين قبض على هذا الكرسي الذي تركه له

والده ، حجر بن عمرو ، كان شابا قويا وشجاعا ، صحيح أنه كان قصيرا وسمينا ، لكنه كان يتمتع بصحة جيدة وقوة بدنية عالية وذاكرة صافية لا تشوبها شائبة ، لكنه في السنوات الخمس الأخيرة كان قليل العمل والمتابعة ، بسبب زيادة وزنه وأمراضه ، حيث أوكل لمساعديه أصحاب الولاء ، إدارة شوؤن البلاد ، وحتى العلاقات بالقبائل الأخرى ، وتفرغ لزوجته سهيلة بنت ماء السماء ، يشرب معها ويسهر معها ويداعبها ويقول الشعر في جمالها الذي يكاد يغادرها ، لكن هذا لا يمنع الملك الجاهلي ، حين تنام سهيلة ، أن يقوم بغزوات سرية لجميلات مملكة كندة اللعوبات ، بنات الأغنياء والتجار أو الفقراء الصعاليك أو الوزراء الموالين ، وأيضا من زائرات وضيفات مملكة كندة ، حيث يواعدهن في قصره السري ، الذي لايعرف عنه سوى شقيقه عروة ، ينتظرن إطلالته في القصر الذي أعده لهذا الغرض ، يسهر معهن ويحقق أغراضه ، ثم يعود لينام بجوار زوجته قبل أن تصحو من النوم .

(٣)

في تلك الفترة بعد أن تعب الحارث بن عمرو ، وبعد أن لاحظ أن ملائكة الموت بدأوا باالاقتراب من روحه ، استدعى شقيقه عروة بن عمرو ، المشهور بقاطع الطريق وعينه وزيرا كبيرا وراعيا لشؤون مملكة كندة في نجد ، من أجل أن يحفظ الأمن ويتابع كل صغيرة وكبيرة ، وهكذا قرر التفرغ لملذاته وخليلاته وخموره المعتقة .

قال الملك الجاهلي في نفسه : أريد أن أستمتع قبل أن يهجم ملائكة الموت . . إنهم أنذال ويأتون دائما في الأوقات الخاطئة .

وقال لشقيقه قاطع الطريق عروة بن عمرو : أريد منك أن تبدع في معرفة كل ما يدور في بيوت مملكة كندة . . أريدك أن تعرف كل شيء وتراقبهم مثل ظلالهم .

قال قاطع الطريق وهو يتصنع الجدية : الناس تحبك يا مولاي ، وقد كنت أسجل كل إبداعاتي الفكرية على رقع

صغيرة خبأتها في خيمة زوجتي زهرة بنت جندح ، وسوف أخرجها بعد أن عينتني أميرا على كندة ، وأبدأ في تنفيذها فورا بمساعدة رجال كندة ، الذين تأكد لنا حبهم العظيم ، لأسرة الحارث بن عمرو الملكية .

قال الملك الجاهلي : وما هي إبداعاتك التي سوف تنفذها؟

قال عروة : سوف أنشيء ديوان التطوع ، يعمل به مئات من الشباب والشابات المخلصين لنا ، وسوف يقومون بزيارات إلى جميع بيوت الشعب لكي يصادقوهم ويساعدوهم في صيانة مزارعهم وأعمالهم ، وبالتالي نعرف كل أسرار كندة الصغيرة والكبيرة بهذه الأعمال التطوعية .

ضحك الملك فاهتز جسده السمين من شدة الضحك وقال بصوت عال : ما أجملك وما أخبثك يا شقيقي . . أيتها العروة السافلة .

قال عروة : تلميذك أيها الملك العظيم .

قال الملك : عليك حفظ الأمن وحفظ إيراد كندة ، هذان الموضوعان هما أهم عملين لديك .

قال عروة : حاضر يا مولاي .

قال الملك : علينا باليقظة لأن المخاطر بدأت تدور حولنا مثل رياح عاتية ، والسفلة والفقراء المعارضون بدأ عددهم يزداد ، وقصائدهم بدأت تفوح منها روائح الحقد .

قال عروة : سوف أكون عينك الساهرة في كل شبر من

مملكة كندة ، فهذا ملك آبائنا وأجدادنا ، وهذه مملكتنا وليست مملكة السفلة والمجانين ، وسوف نحفظها من كل حاقد .

قال الملك : عليك أن تزيد عدد الأعوان من الرجال لأن الشعب بدت عليه علامات السخط وعدم الولاء ، خصوصا بعد حادثة والد الشاعرة خولة بنت ربيعة ، ضعوا ضرائب على التجار وأصحاب المزارع الكبيرة والصغيرة من أجل جمع المال ، لبناء قوة ردع لمملكة كندة ، تصدُّ الأعداء في الخارج وفي الداخل ، كما أرجو إرسال بعض السفلة والمجانين والمدمنين إلى الاجتماعات التي تدور في بيت الشاعرة خولة بنت ربيعة ، ومحاولة إرهابها ، لكي تصمت عن قول قصائدها الحاقدة على مملكة كندة .

قال عروة : هل تريد أن نرفع أجور أصحاب الولاء والعاملين معنا .

قال الملك : لا داعي لذلك فهذا واجبهم .

قال عروة : وجب يا مولاي .

قال الملك : ينفجر فقيرا أفضل من أن ينفجر غنيا يا أبا جهل .

قال عروة وهو يبتسم ابتسامة منافق : هذه حكمةٌ رعتكم الآلهة .

من تلك اللحظة الفاسدة ، بدأ عروة ، شقيق الملك وراعي شؤون كندة ، يأخذ من بيت المال بلا حساب ، يشتري لحظائره

الأملاك والإبل والخيول ، ويصرف على سهراته ونزواته ونسائه بلا حسيب أو رقيب ، وصار الناس يسمونه الحرامي عروة ، وحين شعر بأن الناس بدأت تكرهه ، وظف العشرات من الأولاد الضائعين في حواري مملكة كندة لحمايته وحماية قصوره ، فكان يخرج من داره مخمورا يدور على المضارب والبيوت ويقتحمها باسم ديوان التطوع ، ليعرف كل ما يدور في مملكة كندة ، وهذا ما أساء لسمعة الملك .

(٤)

خولة بنت ربيعة بنت جميلة من بنات كندة الملوك في جاهلية نجد ، وفتنتها ليس في وجهها البريء وليس في جسدها الرائع ، لكنه يكمن في روحها الخفيفة والمرحة ، روح تحب كل الناس ، وفي حضورها حكايات جميلة ومتعة وبساطة وأدب ، وقد عملت على مساعدة الفقراء في كل أنحاء مملكة كندة في نجد ، وخولة لا تخجل في الحق ولا تخجل أن تأخذ من الأغنياء من أجل أن تطعم الفقراء ، أو تشتري لأسرة فقيرة خيمة أو مأوى .

قالت الشعر في بداية حياتها ، لكن بعد أن أخذها العمل الإنساني تركت الشعر لأهله كما تقول ، وتفرغت لما تشعر أنه عملها الحقيقي ، في وقت كان قطع الطريق والغزو والسرقة من عادات كثير من رجال كندة الجاهلية ، والدها ربيعة بن معد من أفضل رجال كندة في البناء والعمارة ، ولهذا وظفه الملك مسئولا عن بناء السدود الصغيرة أو الجدران الحجرية لمنع تدفق

السيول على المزارع ، لكنه لم يستطع إكمال عمله بسبب تدخلات شقيق الملك ، الحرامي عروة بن عمرو في عمله ، ونهبه للأموال المخصصة لمشاريع كندة ، وابقاءه على القليل منها الذي لا يكفي لإكمال المشاريع .

كان عروة بن عمرو ، شقيق الملك الجاهلي ، يتدخل في مشاريع السدود فيوقفها أو يمنع عنها المال اللازم لإكمالها ، وكان يستولي على هذه الأموال ويصرفها على ملذاته وسهراته وسفراته وخيوله ، يساعده في هذه الاختلاسات الابن الأكبر للملك واسمه معاوية ، والذي تربى على يد عمه الحرامي ، فتعلم منه قطع الطرق وسلب أموال الناس بالقوة ، حتى حين استوى والده ملكا على كندة ، توقفوا عن قطع الطرق وبدأوا بشكل منظم في نهب أموال كندة من خلال المشاريع الوهمية ، في حين كان الملك غارقا في شربه وملذاته وهمومه وحروبه الصغيرة والكبيرة .

اشتهر مجلس خولة بنت ربيعة كثيرا ، وصار الزوار يأتونه من كل بقاع كندة الملوك ، وهي أخذت ركنا من أركان ساحة كندة الواسعة ، بدأ المجلس ببعض أقارب وجيران خولة بنت ربيعة ، ثم تحول إلى مايشبه ساحة حكايات وشعر ، وحوارات كبيرة أرعبت الملك ، لم تكن خولة تختلق الحكايات ، لكنها كانت تسرد حكايات الجاهلية من الواقع ، بروح بسيطة وجميلة ، وكانت تحكي لهم كيف أنه من الممكن أن انفعالا

طائشا على حادثة عابرة ، يمكن أن يقود إلى سفك مجاني للدماء ، وأعطت أمثلة بحرب البسوس ، ومقتل ملك العرب المتسلط عمرو بن هند على يد عمرو بن كلثوم . وقد استمر مجلسها منارة للثقافة والحكمة سنوات طويلة .

(٥)

نشأ حجر بن الحارث ، الابن الأصغر للملك الجاهلي النجدي الحارث بن عمرو ، في كنف مملكة كندة ، وكانت والدته سهيلة بنت ماء السماء ترسله دائما إلى مضارب أهلها ، فتعلم مع أخواله الصيد والفروسية ، ودرس حتى تعلم القراءة والكتابة ، وقرأ تاريخ نجد في الجاهلية ، والممالك المجاورة ، كما قرأ عن الفرس والروم وغيرهم من الأقوام المحيطة بمملكتهم وسط جزيرة العرب ، وكان يعود أشهر الصيف إلى ديار والده ، يعيش وسط عامة الناس ويعلم أولادهم القراءة والكتابة والفروسية ، وكان محبوبا من جميع الناس ، لكن والده لم يعجبه هذا الحال المائل لابنه .

من هنا بدأ يسأل ابنه حين كبر : هل أنت معنا أو معهم ، وكان ابنه يسأله من تقصد يا أبي ، فيقول له الملك الكندي : هل أنت مع الملك أم مع الشعب ، قال الولد : إن الشعب والحكومة شيء واحد ، لكن الملك رفض ذلك ، وأخبره عن

كثير من القصائد التي تهجو الملك وأهله وحكمه ، فيسأله ابنه لماذا لا نجلس معهم ونعرف مطالبهم ، فيرد الملك أنه يرفض الجلوس مع حثالة الشعراء والشاعرات من سفلة القوم . أحيانا يطول الحوار بينهما ، وأحيانا ينتهي بخلافات عميقة ، فيهرب الولد من بيت والده غاضبا أو حزينا .

وفي أحد الحوارات أو الجدالات العنيفة التي ثارت بين الأب وابنه ، وكانت سببا في القطيعة بين الاثنين ، حين طالب الأهالي ببناء موانع حجرية أو سد يمنع عن مزارعهم وبيوتهم سطوة السيول القوية التي تدهمهم في بعض الليالي السوداء ، وهنا أمر الملك بيت المال بمبلغ ضخم لبناء السد ، وعهد لربيعة بن معد والد الشاعرة خولة الإشراف على بناء السد لأنه من أفضل المعماريين في ذلك الوقت ، فتسلم المشروع لكنه لم يتسلم المال ، وظل يطالب بمال المشروع اشهراً طويلة حتى استلمه ناقصا ، حيث تدخل شقيق الملك عروة وتقاسم نصف المبلغ مع معاوية ابن الملك ، كعادتهم في القبض على نصف مبلغ كل مشروع ، وبقي نصف المبلغ الذي بنى سدا صغيرا لم يمنع السيل من إغراق مزارعهم وبيوتهم مرة أخرى ، فثاروا مرة أخرى ولم يقابلهم سوى بالمطاردة والسجن ، ومن أجل إسكات الناس أدخلوا والد خولة في السجن دون قضية واضحة ودون محاكمة ، إذ اتهموه باطلا ، بأنه سبب مأساة السد .

(٦)

في ذلك الصباح النجدي الجاهلي المبكر ، ذلك الصباح الشاعري العالي ، وفي تلك اللحظة التاريخية الدقيقة من حياة الأمة الكِندية ، عطس الملك الجاهلي النجدي الكِندي ، الحارث بن عمرو ، تسع عشرة عطسة ، وحين توقفت هذه النوبة المفاجئة التي دوخت رأسه الدائخ أصلا ، اكتشف أن ظهره يؤلمه ، وكذلك ساقيه ، مع مغص يأتي ويروح في بطنه ، كما أن عينيه السوداوين الصغيرتين ، اللتين تشبهان حبتي زيتون صغيرتين ، واللتين لا تليقان بعيني ملك ، كانتا زائغتين ، فأصابه هلع كبير ، وشعر أن ملائكة الموت يقفون الآن عند الباب الخارجي لداره ، ينتظرون الأوامر للقبض على روحه ، ارتعب المسكين وركض إلى زوجته سهيلة بنت ماء السماء ، فهذا السمين القصير لا يركض إليها إلا في أوقات الشدائد .

ركض إليها يتدحرج مثل حبة شمام فاسدة ، استلقى على ظهره في خدرها وشكا لها أوجاعه ، فأسقته فورا ماء الكمون ،

وقالت له إن مرضك من هواء المطر البارد ربما دخل معدتك ، حين كنت تشرب في الهواء الطلق ، أو من ذلك الجدي الملعون الذي أكلته لوحدك بكامل تفاصيله ليلة البارحة .

غطته باللحاف حتى يرتاح ، لكنه أبعد الغطاء عن وجهه بهلع ، خشية أن يرى أطياف ملائكة الموت ، الذين لازالت صورهم تروح وتجيء في رأسه المصدوع ، نهض بتثاقل وهو يشعر بدوار عظيم ، وفي هذه اللحظة فكر أن يشرب دورقا كبيرا معتقا ، فارتكب هذا الفعل فورا ، فعاد لرأسه بعض توازنه المفقود ، ورأى أن يجتمع برجاله .

أخبر سهيلة بذلك القرار ، وطلب منها جمع الرجال في الديوان ، دخل الحمام ، استحم بدهن العود ولبس الحرير ، ثم خرج مرتاحا ، لتزفه حرمه المصون مرهقا إلى الديوان ، فجلس الوالي المدور ، على كرسيه المزين بالذهب والدمقس والزفير مثل ديك مريض .

جلس الوالي على كرسيه في حال قلق .

التقط أنفاسه بصعوبة .

ثم قال لرجاله بصوت جديد كأنه ليس له .

صوت مليء بالطمأنينة وفيه شاعرية مصطنعة ممزوجة بكحة مفتعلة : أيها الإخوة الكرام أيها المعاونون يا حرس مملكة كندة ، إن حال نجد لايسرني وهي بآلهة متعددة ، وأنا أريد إلهاً واحدا يجمعنا قبل أن أتقاعد أو يخطفني الموت .

صمت قليلا ثم خفض رأسه لكي يمنح للمشهد بعدا دراميا متوترا ، وصورة ملائكة الموت لازالت ترن في رأسه بعمق ، رفع رأسه بعد لحظة صمت ، ثم واصل بحزن واضح التمثيل والادعاء : إنني أفكر بجمع الشعب لأخذ رأيه ومقترحاته لكي نختار إلهاً واحدا لنا جميعا ، بدلا من حال الشتات التي لا تسر في مملكتنا الحبيبة .

ثم واصل بخشوع زائف : أطلب منكم أن تجمعوا أهل كِندة ، النساء قبل الرجال ، فمملكة كِندة تقدر نساءها الشاعرات الرائعات ، وتدعوهن أيضا لحضور اجتماعنا لأخذ رأيهن في هذا الموضوع المهم .

هنا طلب الحديث أحد الأعوان ويدعى حنيفة بن زبيبة وقال : ولكن يا سيدي لماذا لا يكون لكل مواطن إله . .

وأكمل المسكين فرحا بمقترحه : لماذا لايكون لكل مواطن حريته في اختيار الإله . . فقد تكون المسألة أذواقاً ياسيدي العظيم .

رد عليه الوالي بسرعة مفتعلا الغضب : الأذواق ليست في الآلهة يا حمار . . . هذا كفر صريح أيها الزنديق .

وأضاف الوالي بما يظنه قدرته على الكلام المقنع : الأذواق حين تختار بين أنواع الفاكهة أو القصائد أو الخمور أو الجواري أو الغلمان ، لكن في موضوع الإله ، يجب أن يكون إله كِندة في مملكة نجد العظيمة واحدا ، هل فهمت يا ابن زبيبة .

قال حنيفة وقد بدت على وجهه علامة عدم الرضا : فهمت يامولاي . وقال بصوت منخفض : نحن بحاجة إلى ملك جديد وليس إلى إله جديد .

لكن الوالي واصل يخاطبه : أنت فهمت يا حنيفة لكن شقيقك الهارب كليب لا يفهم . . ولازال هاربا يقطع الطرق ويسرق حلال الناس . أليس كذلك ؟

قال حنيفة : وابنك أيضا ، معاوية ، يا مولاي ، يقطع الطرق ويسرق لكنه لم يهرب لأن حراسك يحمونه .

قال الوالي بعد أن احمر وجهه غضبا وإحراجا : كف عن هذا الهراء يا ابن زبيبة . . ولا تصدق كلام المتمردة والمتشاعرة خولة بنت ربيعة التي تريد بقصائدها اشاعة الفتنة بين الناس والملك .

أجابه حنيفة بغضب مكتوم : لا دخل لخولة في ما أقول .

قال الوالي : اصمت فلدينا ما هو أهم من شقيقك المنحل كليب .

ثم عاد الوالي إلى صوته الجديد . . ذلك الصوت الذي فيه ما يشبه البكاء أو الخشوع أو الترتيل أو الموسيقى . . فصاح بهدوء : يا أمة نجد الكِندية ، إنه من باب حبي لك ومن باب الديمقراطية التي أعتنقها ، أطلب اجتماع أعيان الأمة النجدية لاقتراح إله واحد كبير ، يكون لنا عونا في الشدائد .

امتلأ الجو بالخشوع والصمت ، كسره بكل غباء كعب بن

ثعلب ، وهو أحد الأعوان الصغار بصوته المبحوح الذي جاء من الخلف ، حين سأل الوالي : لكن ما معنى ديمقراطية يا مولاي العظيم؟

ظل الوالي صامتا للحظة ، ربما لكي يبدو منزعجا من هذه المقاطعة السخيفة ، لم يرفع رأسه لكنه فقط رفع عينيه الصغيرتين ، تلفت بهما يبحث عن مصدر الصوت وهو ينادي : يا صاحب السؤال أين أنت .

وحين قبض عليه بعينيه السادرتين اللتين كما قلنا تشبهان زيتونتين صغيرتين شديدتي السواد .

قال له : مشكلتك يا ابن الثعلب أنك تسأل مثل هذه الأسئلة في أوقات غير مناسبة ، في أوقات دقيقة وعصيبة من حياة الأمة ، حيث كما تعرف أننا نبحث قضية خطيرة لها علاقة بمستقبل مملكة كِندة الديني ، وأنت بكل غباء تسأل سؤالا يعرف إجابته أصغر شاعر في كِندة .

ثم سأله الوالي بغضب : ألست أنت أيها الصعلوك المتشاعر والمبحوح المنحل والعميل المزدوج ، من يسهر في دار الشاعرة خولة بنت ربيعة ، ومعكم بقية المنحلين أمثال امرؤ القيس وطرفة بن العبد وزهير بن أبي سلمى ، أليس كذلك أيها المنحل .

ثم واصل الوالي بحدة : حين تقطع قدميك عن دارها سوف نغض الطرف عن قصائدك المسروقة أيها الثعلب الماكر

والمريض ، وسنجعلك تقرأ سخافاتك على دكة الشعراء المشهورة ، لكن في ما لو عرفت أنك تزورها في دارها ، أقسم بناقتي الجميلة أن أعلقك من قدميك في أطول أشجار كندة ، وأفضح قصائدك المشبوهة .

وأكمل الوالي : ثم قل لي أيها الثعلب ، أريد أن أعرف هل أنت معنا أم معهم أيها الصعلوك؟

قال المبحوح محرجا : معكم ياسيدي ، وناقتي الحزينة لم أحضر مجلس بنت ربيعة منذ زمن طويل ، يا مولانا العظيم ، ولن أحضره أبدا .

في هذه اللحظة تدخل الغاضب حنيفة بن زبيبة مرة أخرى قائلا للوالي : ماذا بها خولة بنت ربيعة يامولاي ، إنها تكتب قصائد ضد الحروب وضد الفساد وضد المتسلطين على شعب كِندة .

على الفور صرخ فيه الوالي : أنت أيضا مرة أخرى تعارض كلامي يا ابن زبيبة . . تدافع عن هذه المعتوهة في مجلسي ، بدلا من أن تبحث عن شقيقك الهارب وتحضره للعدالة .

قال حنيفة : أخي كليب يقطع الطرق على اللصوص والحرامية الذين تعرفونهم حق المعرفة .

فصرخ الملك : أخرجوه من مجلسي ، أخرجوا هذا الفاسد الكاذب السافل ، نهض الحارس ليخرجه ، لكن حنيفة بن زبيبة كان قد سبقه إلى خارج المجلس .

تنفس الوالي بعمق ثم أخذ رشفة من دورقه الكبير ، وقال للرجل المبحوح ، وهو على وشك الابتسام ربما ليلطف الجو : أسمع يا أباجهل المبحوح ، نعود لسؤالك أيها الثعلب المريض ، فكلمة ديمقراطية تعني حكم الشعب ، ولا أريد بعد ذلك أن اسمع صوتك الصغير هذا ، ثم ترفق بنفسك ولا تشرب كثيرا في الهواء الطلق حتى يعود لك صوتك أيها المنحل .

وهنا ضج المكان بضحك واضح الافتعال من الجميع ، بمن فيهم سهيلة زوجة الملك الجاهلي ، فعاد جو المجلس لطبيعته بعد تلك المشادات وبعد تمثيلة البكاء .

هدأ المكان ، فوجه الوالي كلامه لرئيس معاونيه : الملاحظ أن الحمير بدأ عددهم يزداد في مجلس الأعوان ، وبدأت أسئلتهم الجاهلة تفوح ، ابحث لنا عن رجال أفذاذ لمجلس المعاونين .

قال خادمه عروة على الفور : حاضر سيدي .

قال الملك الجاهلي : أخبروا جميع الأعيان من التجار والشعراء والشاعرات أن الاجتماع هنا في داري عصر الغد ، ثم وقف الوالي متأرجحا وكاد يسقط ، فأمسكت به سهيلة بنت ماء السماء ، ابتسم لها بوجه أحمر يداري خجلة ، نهض الجميع ، مشى الوالي تصحبه حرمه إلى منتجعه المثمر والظليل خلف الدار ، لكنه توقف فجأة ، التفت إلى أعوانه وهو يتأرجح مثل ضوء يهتز ، وتحدث بصوت متلعثم يتصنع القوة والعظمة

مع الإيماء بسبابته عاليا ، وقال : يوم الغد اجتماع تاريخي في حياة الأمة ، أدعو الجميع للحضور ، حتى الفقراء والفاسقين والسفلة والمجانين وسوف يرأسه شقيقي عروة بن عمرو .

ثم مضى يتدحرج مستندا إلى زوجته .

هنا أظلم مسرح الجاهلية لكن الستارة لم تتحرك . .

ظلت الصورة الشاعرية لمؤخرة الملك الجاهلي القصير والسمين ، وهي تتدحرج ذاهبة إلى ملاذها ، ومعها صورة رجاله وهم يودعونه وقوفا ، في انتظار اختفاء طيفه الكريم ، لكي يتفرقوا .

لكن الملك وهو يغادر كان يحدث نفسه بصوت شبه مسموع ، كان يتمتم :

لن أموت لازال الوقت مبكرا ، وهؤلاء الملائكة الذين يربضون عند باب داري ، سوف ينتظرون طويلا ، هذه مشكلتهم وليست مشكلتي .

كانت الجدران ، وجبال كندة ، تردد صدى صوته البائس والحزين ، حتى اختفى عن الأنظار .

(٧)

في صباح اليوم التالي كان الشاعر المغمور كعب بن ثعلب على وشك النوم تحت شجرة في وسط الميدان العام بمملكة كندة ، عند محل الشواء المعروف بارتياد أكابر القوم له ، وكان بجواره خاله الشيخ النعمان ، يحكي له حكايات كندة القديمة ، وكان في تلك اللحظة يحكي له عن ملك قديم ، من ملوك كندة بنجد ، وحين حدثت مجاعة في البلد ، هجم الفقراء الجائعون على قصره ، قفزوا أسواره وقتلوا الحرس ، وكان الملك في تلك اللحظة ، يسبح في بركة وسط الحقول مع بعض أصدقائه ، فدخل المواطنون عليه وبدأوا في أكل كل ما يواجههم ، فصعد الملك ورفاقه إلى رأس شجرة تظلل البركة ، وحين شبع المواطنون الفقراء اجتمعوا حول الشجرة يطلبون من الملك ورفاقه النزول .

لكن الملك الجاهلي خطب فيهم بصوت عال لكن يرتعد خوفا قائلا : أيها الإخوة الفقراء كونوا مؤدبين .

وقبل أن يتم خطابه رماه أحدهم بسهم ، فسقط في بركته ، ثم أطاحوا برفاقه .

وحين أنهى خاله الحكاية لمح من القرب ، مساعد الملك عروة بن ربيعة ، واقفا أمام محل الشواء ، وهنا قفز بن ثعلب من مكانه ، كأن عقربا لدغته ، إذ وجد هذا الشاعر المغمور أن الفرصة جاءته ، فحاول استغلالها ، لكي يبوح لرجل الوالي الأول بهمومه ، لكن بطريقة تثبت شاعريته المسكينة .

توجه إليه وألقى السلام على مساعد الوالي ثم أنشد :

أيا أعيان كندة لماذا تطاردون شخصي الكريم في كل مكان ، وترفضون حضوري لمجلس الأعيان؟

وهنا رماه عروة بنظرة غضب .

ثم قال له : تحدث يا ابن تماضر على مقاسك واترك الشعر لأهله فنحن نعرف أن أشعارك مأخوذة من هنا وهناك .

ثم سأله بحدة : ماذا تريد في هذا الصباح .

قال كعب وقد احمر وجهه خجلا : ياسيدي أطلب منك أن تستأذن الملك المفدى وسيد كندة الحارث بن عمرو أن يسمح لي بحضور مجلسكم العظيم عصر يوم المؤنس .

قال عروة : أنت تعرف أن هذه الندوة الأسبوعية تقام لأعيان كندة ، وليس للفقراء والسفلة والمجانين .

قال كعب : أنا من الأعيان يا حمتك الآلهة ، هل نسيت أن والدي (ثعلب) هو من علم الملك الجليل القراءة والكتابة وأنواع العلوم الأخرى .

وأضاف في نشوة : وتعرف أنني أبيع وأشتري في الإبل

والأغنام كما أنني أنشد الشعر؟

سأله عروة : كم لديك من الحلال يا ابن ثعلب؟

قال كعب : عندي عشرون رأسا من الغنم وعشرة رؤوس من الإبل .

سأله عروة : هل تسمي هذا حلالا؟

وأضاف : إن أقل رجل أو امرأة يحضر مجلس الوالي لديه حلال لا يقل عن مئة رأس .

فقال الشاعر المغمور : وعندي أيضا قصيدة في مديح فروسية الملك العظيم ، كما أنني أحفظ قصائد الشاعر الأعشى التي يحبها الملك .

هنا فاجأه مساعد الوالي : لكن ما هي علاقتك بخولة بنت ربيعة؟

وعلى الفور أدرك كعب مغزى السؤال ، خصوصا أن الشاعرة خولة هي قريبة هذا المساعد وقد حاول استمالتها أو الزواج منها فرفضت .

ارتفعت روح كعب ، بسبب شعور صغير بالانتصار ، على هذا المتسلط الماثل أمامه ، فقال بصوت منتش : ننشد الشعر في بيتها كل يوم عروبة ، وفي بعض الأماسي يحضر امرؤ القيس والمهلهل وطرفة بن العبد وعنترة ، فنقيم حفلات شواء وشعر وغناء ورقص .

قال عروة : إذا تركت سهراتك وفسوقك وتركت هذه المرأة

المتمردة وندماءها الفاسقين ، فسوف ننظر في حضورك لمجلس الملك ، ثم تقرأ قصائدك بعد أن نغض الطرف عن سرقاتك الصغيرة فيها ، ثم نجعل الملك ينفحك من مكارمه .

ضحك كعب مبتهجا ثم قال : حفظتك الآلهة يا صديق المساكين .

وفي هذه الأثناء لفت نظرهما ، رجل بثياب ملونة وجميلة ، بالقرب منهما وقد وقف على صخرة صغيرة يصيح : يا أهل كندة يا عصابة الأكابر ، أيها الرجال ، أيتها النساء ، أيها الوجهاء والنبلاء والشعراء ، أيها السفلة والمجانين ، نعلمكم أنه في دار الشاعرة الكندية الكبيرة خولة بنت ربيعة ستقام مساء الغد أمسية شعرية ومحاورة بين كبار ملوك وشعراء كندة ومنهم امرؤ القيس وزهير ابن أبي سلمى وطرفة بن العبد ، وسيتبارون في قصائد ضد الحروب وضد القتل ومفاسد الملوك .

وهنا ركض إليه مساعد الملك ، وتبعه بفضول الشاعر الصغير ابن الثعلب ، وقف عروة أمام الرجل المنادي ، يؤشر له أن يصمت ، لكن الرجل لم يفعل ، فضرب مساعد الملك الصخرة الصغيرة التي يقف عليها الرجل الملون بقدمه ، اختل توازن صاحب الإعلان ، فسقط أرضا ، ثم وقف ينفض ثيابه الجميلة ، وقد تملكه الذعر حيث يقف فوق رأسه مساعد الملك شاهرا سيفه .

قال خادم الملك للرجل الملون بصوت صارخ : لايحق لأحد

إقامة الأمسيات أو دعوة الأمة الكندية لمناسبة دون عِلم الملك ، هل فهمت ، أم أنك تحتاج إلى أن أقطع رأسك لكي تفهم ، ثم تركه ومضى ، فركض خلفه رجاله وأتباعه .

وفي الحال ذهب الشاعر المغمور ابن ثعلب إلى بيت الشاعرة الكبيرة خوله بنت ربيعة ، وادّعى البطولة أمامها ، فحكى لها كذبا ، كيف أنه هجا مساعد الملك أمام الجميع ، وزاد أن خادم الملك حاول بشتى الطرق أن يقنعه بتركها ويحضر مجلس الأعيان عند الملك لكنه رفض بشدة ، كان يريد مواصلة الادعاء ،لكنها كانت مشغولة عنه ، إذ وجد في مجلسها الكثير من الشعراء والشاعرات والمحبين والمحبات ، ينشدون الشعر ، فانضم لهم وأوجز في رواياته الكاذبة ، وظل يستمع إلى الكثير من القصائد الجديدة التي تدين هؤلاء الولاة الذين سقطوا في وحل الأحقاد والحروب في ما بينهم ، ما منح الفرس والروم فرصة غزوهم في كل وقت ، وفي آخر الليل دخلوا في جو الغناء ، حتى أشرقت شمس مملكة كندة فوق رؤوسهم الجميلة .

في هذه الأثناء كان الرجل صاحب إعلان الأمسية الشعرية ، وصاحب الثياب الملونة ، ينزف دمه من رقبته ، بعد أن ضربه أحدهم بسهم في ساحة كندة وهرب .

(٨)

وضعت الفيلسوفة والشاعرة النجدية الجاهلية خولة بنت ربيعة كأس الخمر على شرفة النافذه بعد أن وصلها خبر مقتل صديقها صاحب الثياب الملونة ، على يد أتباع الملك ، أطلت على الميدان فوجدت أن الحرب ، قد اندلعت ألسنتها الملتهبة ، بين أعوان الملك وحرسه من جهة ، وفقراء القوم أصدقاء المغدور من جهة أخرى ، من خلال شرارة قتل رجل مجهول من الحرس لصاحب الإعلان .

هنا بدأ العراك بين الموالين والمعارضين للملك الجاهلي ، وسرعان ما تطور بعد توافد الحشود من كل أنحاء كندة لمساعدة الطرفين ، في الساحه الكبرى وسط كندة .

في هذه اللحظة قالت خولة من شرفتها لرجالها : إن المصائب إذا جاءت فانها لا تأتي فرادى ، ولكن جماعات ، تأتي دفعة واحدة ، وهذا ما حدث للملك الحارث بن عمرو ، فعلى يد هذه الحادثة الخطيرة ، في الغدر والقتل لمواطن بريء ، سوف تكون نهايته .

وفي هذه اللحظة أيضـا ، كـان الملك الجـاهلي يقـول لمساعـديه : هذا يومكم يا رجـال ، اذهبـوا الآن إلى مـستـودع السـلاح وإلى الحظائر السـرية ، خـذوا أقـوى السيـوف وأقـوى الخيول ، وازحفوا إلى ساحة الوغى بألف سيف .

قال كبير المساعدين : سمعا وطاعة يا مولاي ، سيكون كل شيء على ما يرام ياسيدي .

قال الملك : أنا سوف أذهب مع العـائلة الكريمة إلى واحتي السرية ، حتى تنتهي هذه السخافات .

قال كبير المساعدين : صحبتكم السلامة يا مولاي .

وقيل إنه هرب مع أسرته نحو الرومان في الشمال .

وقـال أحـد السـاخـرين من الحـداثيين إنه هرب للرياض واستأجر شقة في العليا .

عالم داوود أبو سليمان

خرجت من بيت داوود بعد السهرة التراثية منتشيا ومتحمسا ، وصلت البيت في لحظة حالمة ومثيرة للشجن ، عدت ومعي ملف أوراق من داوود ، سوف أتسلى بها ، قد تساعدني في اختبار محاولاتي النقدية المتواضعة ، وفي فكرة مشروع البحث عن السرد في التراث العربي .

في الملف نسخة من رواية (الملك الجاهلي يتقاعد) ، وأوراق لحكايات تراثية موجزة ومتفرقة عن الليلة الأولى من حكايات ألف ليلة وليلة ، وحكاية مقتل ملك العرب في الجاهلية ، وحكاية كتاب (ترجمان الأشواق) لإبن عربي ، أيضا فتشت من خلال المواقع الثقافية على النت واكتشفت عالما ثريا بالحكايات والأحداث .

عملت كأس شاي وبدأت في تجميع أهم القصص والحكايات التي سبق أن قرأها وذكرها لنا داوود ، وبدأت في متعة استعراضها والتعليق بأهم الملاحظات حولها ، من أجل محاولة دراستها .

كنت أتأمل في الأشياء المحيطة بي تلك اللحظة الممتعة ، أوراق ، كتابات ، أفكار ، تواريخ ، أحلام ، هموم ، كأنها أطلال متناثرة ، أو أجساد ضائعة ، مستسلمة ، داخت تحت ضربات قدر موجعة ، أطيل النظر فأرى فيها حياة جديدة تريد أن تنهض ، حياة جديدة بداخلها ألسنة نار لا أراها ، إنما أشعر بحرارتها تلفح وجهي ، كل شيء يريد أن يتحرك ، أو يموت ميتة أبدية ، هنا أحاول أن أفتح باب الخيال واسعا ، أو أقترب قليلا لأرى ألسنة النار قبل أن تستقر أو تخمد إلى الأ بد .

بدأت في تقليب ملف الحكايات ، القراءة أولا ثم يتبعها تسجيل ملاحظات نقدية أولية بالقلم الرصاص ، وجدت أن أغلب الحكايات لها أكثر من مصدر وأكثر من طريقة في السرد ، مع فروقات ليست جوهرية ، اختلافات في طرائق الكتابة والعرض وليس في جوهر الحكاية ، وأغلب الحكايات مسرودة بطريقة مباشرة وبلغة سهلة ، وليس بلغة الشعر أو الإيحاء ، فيبدو أن الهدف إيصال جوهر الحكاية وليس الإبداع اللغوي أو الفكري في سرد الحكاية ، بينما لاحظت افتعالا في طرائق عرض بعض الحكايات ، وليس في الحكايات نفسها ، حيث تحاول بعض طرائق العرض تكلف لغة البلاغة أو القاموس ، لكن سوف آخذ أجزاء صغيرة من بعض الحكايات للقراءة والبحث كنماذج ، وأستعرضها مع الملك داوود أبو سليمان حين يعود إلينا من جديد .

الأسئلة كثيرة عن حكايات ألف ليلة وليلة ، أحاول إيجازها لمحاولة فهمها ، مثلا محاولة بعض النقاد تحليل حكايات من ألف ليلة وليلة في محاولة للاقتراب من لغز كتابة الليالي ، والإجابة عن أسئلة حول الشفهي والكتابي ، ومفهوم الراوي ومفهوم المؤلف واختلاط الواقع بالخيال والذكريات بالأحلام والتأمّلات ، لكنهم يؤكدون أنه لم يحظ السرد العربي القديم بالعناية الكافية من الباحثين العرب المعاصرين ، رغم الاتفاق على وجوده وتوفر نصوصه السردية المختلفة ، كالأخبار والنوادر والحكايات والأمثال والمسامرات وأنواع القصص المتقدمة ، كالمقامات وقصص الحيوان والقصص الخيالية والشعبية والرحلات والسير وسواها .

أمامي عدة حالات ، الحالة الأولى مع أشهر وأهم حكايات ألف ليلة وليلة ، حكاية التاجر مع الجني ، وهي الليلة الأولى ، قالت شهرزاد : بلغني أيها الملك السعيد ، أنه كان تاجر من التجار ، كثير المال والمعاملات في البلاد ، قد ركب يوماً وخرج يطالب في بعض البلاد ، فاشتد عليه الحر فجلس تحت شجرة وحط يده في خرجه وأكل كسرة خبز كانت معه وتمرة ، فلما فرغ من أكل التمرة رمى النواة وإذا هو أمام جني طويل القامة وبيده سيف ، فدنا من ذلك التاجر وقال له : قم حتى أقتلك مثل ما قتلت ولدي ، فقال له التاجر : كيف قتلت ولدك ، قال له : لما أكلت التمرة ورميت نواتها جاءت النواة في صدر ولدي

فقضي عليه ومات من ساعته ، فقال التاجر للجني : إعلم أيها الجني أني عليّ دين ولي مال كثير وأولاد وزوجة وعندي رهون ، فدعني أذهب إلى بيتي وأعطي كل ذي حق حقه ثم أعود إليك ، ولك عليّ عهد وميثاق أني أعود إليك فتفعل بي ما تريد والله على ما أقول وكيل ، فاستوثق منه الجني وأطلقه فرجع إلى بلده وقضى جميع تعلقاته وأوصل الحقوق إلى أهلها ، وأعلم زوجته وأولاده بما جرى له فبكوا ، وكذلك جميع أهله ونسائه وأولاده ، وأوصى وقعد عندهم إلى تمام السنة ثم توجه وأخذ كفنه تحت إبطه وودع أهله وجيرانه وجميع أهله وخرج رغماً عن أنفه فمشى إلى أن وصل إلى ذلك البستان .

هنا سجلت ملاحظتي بالقلم الرصاص حول هذه الحكاية من ألف ليلة وليلة ، التي تعتمد على الحوار بين التاجر والجني ، وعلى التشويق وعلى الحكمة والوفاء في نهاية الأمر ، لكن أهم الملاحظات تتمثل في حكم الجني على التاجر بالقتل ، حيث قال له : قم حتى أقتلك مثلما قتلت ابني ، وهو يعرف أن التاجر قتل ولده دون قصد .

الحكاية الثانية ، حكاية حي ابن يقظان ، حيث إن ولادة حي بن يقظان تبقى لغزا ، ومع ذلك فإن الرواية السائدة تقول إن حي بن يقظان قد ولد تولّداً جسدياً مألوفاً من أم هي شقيقة ملك إحدى الجزر الهندية ، ومن أب هو قريب لها اسمه يقظان ، كانت شقيقة الملك قد تزوجته خفية عن شقيقها الذي

منعها من الزواج ، وعندما وضعت المرأة طفلها خشيت من نقمة شقيقها الملك ، فوضعت الطفل في تابوت وألقته في البحر ، حملت الأمواج التابوت حتى ألقته على ساحل جزيرة مجاورة هي جزيرة الواقواق ، وصادف أن مرت في المكان الذي استقر فيه التابوت ظبية كانت تبحث عن ابنها الذي فقدته ، فسمعت صوت بكاء الطفل فاتجهت نحوه ، وكان أن عثرت على حي الوليد فأرضعته وحضنته ، يكبر حي بن يقظان وتمر حياته في سبع مراحل .

في النهاية لاحظت أنها حكاية فلسفية عميقة عن اكتشاف الحياة واكتشاف الوجود ، وليست مجرد حكاية تقليدية للتسلية والحكمة مثلا .

الحكاية الثالثة التي أمامي ، عن كتاب ابن عربي (ترجمان الأشواق) ، وكتاب (صورة المحبوب في ترجمان الأشواق) لهنري كوربان ، ترجمة : فريد الزاهي ، وهي القصيدة الحكمية للعاشق الصوفي ، في مستهل الديوان الذي عنوانه (ابن عربي بـ'ترجمان الأشواق') يسرد ظروف تأليفه كما يلي : 'إني لما نزلت مكة سنة خمسمائة وثمان وتسعين (١٢٠١م) ، ألفيت بها جماعة من الفضلاء ، وعصابة من الأكابر الأدباء والصلحاء بين رجال ونساء ، يقول الشاعر : 'كنت أطوف ذات ليلة بالبيت فطاب وقتي وهزني حال كنت أعرفه ، فخرجت من البلاط من أجل الناس وطفت على الرمل

فحضرتني أبيات فأنشدتها أسمع بها نفسي ومن يليني لو كان هناك أحد :

ليت شعري هل دّروّا أي قلب ملكوا

وفؤادي لو درى أي شعب سلكوا

أتراهم سلموا أم تراهم هلكوا

حذر أرباب الهوى في الهوى وارتبكوا

فلم أشعر إلا بضربة بين كتفي بكف ألين من الخز ، فالتفت فإذا بجارية من بنات الروم لم أر أحسن وجها ولا أعذب منطقا ولا أرق حاشية ولا ألطف معنى ولا أدق إشارة ولا أظرف محاورة منها ، قد فاقت أهل زمانها ظرفا وأدبا وجمالا ومعرفة .

فقالت له الفتاة : ياسيدي كيف قلت؟

فقال :

ليت شعري هل دروا

أي قلب ملكوا؟

فقالت : عجبا منك وأنت عارف زمانك تقول مثل هذا ، أليس كل مملوك معروفا ، وهل يصح الملك إلا بعد المعرفة وتمني الشعور يؤذن بعدمها والطريق لسان صدق ، فكيف يجوز لمثلك أن يقول مثل هذا .

في تلك اللحظات يتجلى شعر الحب والهيام ويواكبه النقد الدقيق بلغة قصصية جميلة .

ثم أصل إلى الحكاية الرابعة ، قصة مقتل ملك العرب عمرو بن هند ، على يد عمرو بن كلثوم ، من كتاب (أيام العرب قبل الإسلام) ، كان ملك العرب عمرو بن هند شديد البأس مع غطرسة فهابته العرب ، وأشهر قصصه كانت مع عمرو بن كلثوم ، حين حدا به غروره وغطرسته يومًا إلى سؤال جلسائه : هل من أحد من العرب تأنف أمه أن تخدم أمي؟ فقالوا : نعم أم عمرو بن كلثوم أبوها مهلهل بن ربيعة وعمها كليب وائل أعز العرب وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب ، فدعا الشاعر وأمه إلى وليمة فحاولت أم الملك استخدام أم عمرو بن كلثوم في حاجة لها تناولها إياها فأبت وقالت : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها فكررت عليها وألحت فاستغاثت أم الشاعر وسمع ابنها استغاثتها من الخباء المجاور ؛ فالتقط عمرو بن كلثوم سيفًا لابن هند معلقًا لم يكن ثمة سيف غيره ففلق رأسه به وأرداه قتيلا ، وقد تردد صدى هذه الحادثة في شعر الجاهليين ، كما أشار عمرو بن كلثوم نفسه إلى هذه الحادثة في معلقته الرائعة :

إذا ما الملك سام الناس خسفًا

أبينا أن نقر الخسف فينا

أَلاَ هُبِّي بِصَحْنِك فَاصْبَحِيْنَا

وَلاَ تُبْقِي خُمُوْرَ الأَنْدَرِيْنَا

مُشَعْشَعَةً كَأَنَّ الحُصَّ فِيْهَا

صَـــــبَنْـتِ الـكَأْسَ عَـنَّـا أُمَّ عَــــمْـــرٍو
وَكَـــانَ الـكَأْسُ مَـــجْــــرَاهَـا اليَــــمِـــيْنَـا

وهنا لاحظت أن انفعالات الجاهلية لأسباب تافهة في الغالب ، حيث يتقاتل الشعراء لأسباب يرون أنها تتعلق بالكرامة ، بينما لو تمت مراجعتها لأمكن بسهولة اعتبارها حادثة لا تستحق القتل إطلاقا ، ولو أن أم عمرو بن كلثوم أحضرت الصحن لأم عمرو بن هند ، وقالت لها : إن خادم القوم سيدهم ، لما انتهت الحكاية بمقتل أحدهم ، لكن ما يعنينا هنا هو الحكاية التي تتمتع بالإثارة والتشويق والقبلية الممقوتة التي لازالت تضرب أطنابها في جاهليتنا الجديدة .

أما الملف الخامس والأخير ، فهو عن الشيخ محمد بن عبد الجبار بن حسن النفري الملقب بالنفري ، ومن أشهر كتبه كتاب (المواقف والمخاطبات) ، من أشهر ما ذكر عنه أنَّه قال : كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة . لم يكن النفري يعلم أنه وبعد قرون من وفاته ستكون إحدى مكاشفاته في كتابه المعروف بالمواقف مدخلاً من مداخل الحداثة في الأدب وبخاصة الحداثة الشعرية ، فموقفه الذي يقول فيه كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة ، تكشف عن تراث غني بأشكال الإبداع ، وما كان الرجل يعرف أنّ هذه الجملة ستحقّق صيتاً واسعاً .

ومن أقواله :

سدَّ باب قلبك الذي يدخل منه سواي ، لأن قلبك بيتي .

يا عبدُ ، من صبر عن سواي أبصر نعمتي ، وإلا فلا .

الإنسان يسافر مع الأنفاس ، من نفس إلى نفس ، ومن دقة قلب إلى أخرى ، نحن في حالة سفر ، والكون كله في حالة سفر ، والسفر نوعان ، سفر في المكان ، وسفر في الذات .

ألاحظ العبارات العميقة في دلالاتها عند الشيخ النفري ، عبارات سابقة لعصرها فعلا ، فيها بلاغة ، فيها روح شاعرية وفيها عمق في المعاني والأفكار .

توقفت بعد تعب وإرهاق مع أجواء حكائية تراثية ممتعة ، وقد عزمت الأمر على أن يكون هذا الموضوع الممتع بحثا مكثفا عن السرد في التراث العربي ، لكن بعد الاستقرار ، وتجميع المصادر والأفكار ورسم مخطط البحث .

ثورات فنية صغيرة

الأيام الماضية كانت مرهقة ، أولا مع تركي لإعادة إصلاح مكتبة داوود ، ثم مع الحكايات التراثية لإعادة ترتيبها في ذهني تمهيدا لدراستها ، صحوت منتعشا ومبتهجا بما أنجزت ، آثار السهر تؤلم مفاصلي ، نهضت ، مشيت قليلاً في غرفتي أبحث عن الباب ، فلم أبصر غير الجدار ، اصطدمت بفتحة الباب الواسعة ، ثم نهضت بسرعة من هذه العثرة المباغتة ، فرأيت مثلما يرى النائم ، أني استحلت رجلاً آخر ، لا أعرف من أي المخابيء خرج لي هذا الآخر ، ورأيت قصيدة جديدة تتسرب من روحي ، ورأيت وقتاً أخضر يتشكل أمامي ، يخرج من تراتيله صوتاً جديداً وأحلام أخرى ، وشعرت أنني قبضت قبل نومي على عبارة أعجبتني ولا زالت ترن في رأسي بعمق وهي عبارة : شرارة الرغبة ، لكنني ربما كنت أسمع شيئا من هذا القبيل ، شرارة الفتنة أو شرارة الرغبة ، دخلت الحمام وبصحبتي شرارة الرغبة ، وبدأت في تنظيف أسناني وأنا أتأمل وجهي في المرآة ،

ابتسمت للصورة التي أمامي وقلت في نفسي ، لقد بدأ المشروع فعلا ، سوف أكتب حكاية داوود أبو سليمان ، هذا المرح الاستثنائي سوف يدخل التاريخ حين يتم تحويل هذا النص إلى فيلم ، فهذا الملك الجاهلي الجديد يستحق أن يكون بطلا فعلا .

بدأت شرارة الرغبة في الكتابة ، بعد قراءة كتاب (ترجمان الأشواق) لإبن عربي ، بدأت أفكر جديا في الكتابة عن تاريخ العرب وآدابهم وقصصهم وأحداث حياتهم وعلمائهم وفلاسفتهم ، حلمت بذلك النص الأبيض ، الضوء ، يحملني كظله إلى زمن بعيد ، قلت سوف أكتبه ، ربما حنين قديم ، حنين صغير يختبيء في جسدي إلى دهشة أولى ، حين كنا نعارك لغة الكلام دهشة جديدة ، عندما تدخل هذه اللغة معركتنا مع الحياة ، ربما حنين مثل وشم قديم يريد أن يعبّر عن ذاته ، ربما حنين كامن كالليل في أعماق النهارات المتتالية أحمله ، يحملني نائما إلى زمن بعيد ، يقبع في ركن من ذاكرة صافية ، سوف أكتبه بياضا شفافا على الورقة ، أنثر حروفه المتقدة خيرا أو شرا ، أقرأها ، ثم أعيد كتابتها ، على جدار البيت ، لوحة ، تحلم بنص آخر ، نص يدق الباب مثل صوت مطر ، فإذا قمت له ، أفتح الباب ، أراه يمضي مثل عابر سبيل ، أو مثل قطط آخر الليل الحزينة ، نص أعرفه ويعرفني منذ زمن بعيد ، يأتي أحيانا مثل تيار هواء صغير يمسح وجهي ببرودة ، أو يأتي ناعما مثل موسيقى ، أو حدقة في جدار تطل على وقتي الجديد ، نص ،

لوحة ، برتقالة ، ضوء ، حلم ، صباح ، يفيق باكرا ، ثم يمضي سريعا ، والورقة صحراء واسعة لا أعرف كيف أدخلها .

في تلك اللحظة ، نفضت كل أوراقي القديمة ، قلت أريد أن أكون جديداً في كل شيء ، وبدأت أقرأ في أوراق وذكريات كُتبت منذ سنوات ، عن تفاصيل أبعد من ذاتي وأقرب لذاتنا جميعا ، كانت الكتابة أشبه ما تكون سردية ، وفي بعض الأحيان تتوقف عن هذا الخط الجاري ، لتكون أخباراً وأرقاماً ، ثم تعود إلى خطها السردي ، ولاحظت أنني أحياناً أقرأ ما يشبه القصص ، التي لا تتّبع أسلوباً واضحاً في الكتابة ، استمتعت بالقصص كثيراً ، إذ أعادتني إلى الكثير من التفاصيل الصغيرة التي بدأت أنساها .

قلت في نفسي ، أحتاج هذا المساء ، نجمتي المكسورة ، أتذكرها حين صحوت جائعاً وظمآن ، وفتحت القلب للهواء والنهار ، ثم حدّقت في تعرج خط من رأس الإبهام حتى الذراع ، فإذا نهر من ماء مغشوش ، أطلب كسرة من نجمة ساقطة تختلط اللعبة بأغنية بدوية عن ثورة جبل أفاقت على صوته مدينتان وشمس ، وكنت أحدّق في خط تعرج من رأس الإبهام حتى الذراع ، هكذا تسربت الحكاية في الرحلة التي قمت بها ، بالدوران حول صورة «فوتوغرافية» قديمة ، وعليها كتابات قديمة أيضاً ، قاربت ثلاث سنوات ، والآن بدأت الرحلة تستقر في مرحلتها الأخيرة بعد نزع الصورة من مكانها ، كنت

تائها ذات مساء ، في المنطقة الوسطى ما بين الرغبة في عمل كوب شاي مع قراءة بقية كتاب أو جريدة ، في هذه اللحظة توقفت ما بين السلم الدائري المؤدي للدور الثاني والمطبخ ، أمام هذه الصورة الملصقة على مرآة كبيرة معلقة على الحائط ، صورة بالأبيض والأسود يصل عمرها إلى ثلاثين عاماً ، صورة محايدة لكنها تحمل تاريخاً تضرب جذوره في الأعماق ، وقفت طويلاً أمامها ، ربما للمرة العاشرة أتوقف هكذا ، ليس حنينا ، لكن فقط لتأمل بعض ملامح الزمن الغابر ، محاولة للربط بين ما مضى وما نحن فيه وما يمكن رؤيته على المدى القريب ، رحلة طويلة قمت بها بالدوران حول هذه الصورة ، لكنها كانت ممتعة ولذيذة ، توقفت أمامها فنسيت كوب الشاي ونسيت الرغبة في النوم ، انتزعت الصورة من مكانها وأنا أرى خيوط عالمها تتسرب قطرة قطرة من ذاكرتي ، قلت أمنحها شيئا من الحياة ، أعطيها ألواناً جديدة وروحاً جديدة وذاكرة أخرى ، وضعتها أمامي ، لوّنتها ، لوّنت الوجوه والأيادي بالأصفر الفاتح ، ثم كتبت في الخلف هكذا تسربت الحكاية ، هكذا كنّا ، في زمن مضى وانقضى ، وهذا ما نحن فيه ، ثم تذكرت رحلتي الأخرى التي سجلتها ، في زمن مضى أيضاً ، تذكرت حين استلقيت وحيداً ذات مساء ، هناك حيث لا أحد ، أرحت جسدي وذهني المتعب ، أرحت كل شيء بالكامل ، أغمضت عينيَّ بهدوء ثم طردت كل شيء من رأسي ، ونزلت هناك

بعيداً ، خارج الزمان والمكان ، أتطامن وأنا أمضي في منطقة جديدة ، غادرت إلى متكئها الحالم فاستقبلتني بفرح ، وأمدتني بروح جديدة ، كنت أفكر بعد العودة بأشياء صغيرة ، أحياناً أمشي ، يأسا ، وعيناي على الأرض ، استرجع شريط حياتي القريبة ، وأخذت موقفاً من بعض الأشياء والممارسات ، بدأت أحاكم الرجل الذي كنته قبل هذا الضياع ، وكنت أتساءل : كيف تسنى لي أنا المغرور بذاتي أن أتجاهل أشياء مهمة ، كيف أضعت الوقت والفرص ، بدأت البحث في الكثير من الأفكار ، وإعادة تصوير الكثير من المواقف ، بدأت الأشياء والأفكار والصور واضحة وجلية أكثر من أي وقت مضى ، ورأيت كيف تتداخل الصور المتناقضة والصحيحة مع بعضها البعض ، وكيف في ظل الانشغالات نقبل بكل شيء ، كنت أرى عالمنا مثل جزر معزولة ، وأرى المسرحية بكامل فصولها .

كنت أعود إلى الطفل في داخلي ، وأشعر أن الوقت الفني بدأ يترك فيَّ أثراً من روحه ، مضمخاً برائحة جديدة ونفاذة لم آلفها بعد ، وكنت أحاول أن أتعايش مع هذه المتعة بسرية ووقار ، في حين تنفجر الذاكرة بلا إرادة فيَّ ، مبتعدة هناك إلى الطفولة القصوى ، وإلى تعرية الواقع الذي كان واقعاً ضخماً ومسيطراً بضبابه قبل هذا الموقف ، لكنني بدأت أشعر بالمسئولية أكبر ، لأن الأسئلة والأفكار تأتي عشوائية على نحو مثير ، وفي

وسطها تبرز صور غير معقولة ، أحاول الاقتراب من هذه الحالة الغامضة التي أمر بها ، بدأت أرى وجوها قديمة أعرفها ، في عتمة خفيفة أمامي ، بدأت أشعر بدوار ثقيل أيضاً ، وأنا أتأمل وجوهاً اصطفت بجانب بعضها بتعابير مختلفة ، كل أصحاب هذه الوجوه ماتوا ، وكلهم الآن يبدأون في الحركة ، يتقدمهم وجه والدي الذي افتقدته كثيرا ، كان أكثرهم وضوحاً بشعر وجهه الأبيض ، تقدم أكثر ويده اليمنى أمامه حتى لامست خدي فصحوت من خدري اللذيذ ، وبقي بعض الدوار الذي سمح لي بتوديعه وداعاً يليق بحجم الفقد ، وفي كل وقت كانت تظهر وجوه متفرقة وتغيب ، نساء ورجال فقدتهم منذ أزمنة بعيدة ، في حوادث أو أمراض مختلفة ، وجوه تظهر ووجوه تغيب وأنا في حال جديدة ، أرى نفسي في وجه أبي ، أرى أسئلتنا وأحلامنا المعلقة ومتاعب وجوهنا جميعاً ، وكانت بين وقت واخر تطل علّي بوجهها الفاتن ، تطل من البعد وأنا مشغول بوجوه كثيرة حولي ، وكأنها تريد القول إنك دائما مشغول عني ، تطل من البعد فأشعر بتأنيب ضمير وندم وبكاء ، ثم في لحظات أخرى أشعر أنني أعيش حياة بائسة في عالم كبير الفوضى وكبير الآلام وكبير البؤس ، عالم لم أشارك في صنعه وليس لي في واقعه رأي ، الباب الكبير الذي أمامي يفضي إلى باب آخر ، والباب الثاني من بعده ، سوف يقوده إلى أبواب مفتوحة ، وممرات كثيرة مغلقة ، وأنا أقف هناك

بعيدا ، أرقب أناسا يدخلون الباب الكبير أو يخرجون منه ، أقف بعيدا أنتظر ، والناس يركضون هناك بلا هدف واضح ، يدخلون ويخرجون من أبواب كثيرة أخرى ، وبأيديهم أوراق كثيرة ، وأبواب كثيرة تنتظرهم ، أقف هناك والناس تدخل وتخرج من أبواب كثيرة تفضي إلى طرقات مغلقة ، أقف بعيدا وأتذكر أشياء كثيرة وأحلم بأشياء كثيرة ، كل الأبواب تفضي إلى أبواب أخرى ، كل الأبواب تفضي إلى طرقات مغلقة ، ليس هناك باب يأتي من فراغ ويذهب بك إلى فراغ ، ليس هناك باب يذهب بك إلى هناك ، حيث حياة أخرى مفتوحة الرحاب ، لكني أقف متوتراً أقرأ الماضي ، أقرأ وقوفي الأول أمام العالم والناس والأصوات والحياة ، والدروب المغلقة ، التي أحبطت روحي منذ الصغر ، أقف أمام كل باب مسحورا ومبهورا ، خائفا مترددا ومتلصصا ، أحاول تحريك قدمي ، لا أستطيع أن أتقدم خطوة واحدة ، أحاول أن أتكلم فلا أقوى على الكلام .

قلبك بيتي

بدأت أفكر جديا في الزواج ، بعد أن داهمت هدوء حياتنا أربعة أحداث قلبت كيان أوقاتنا الروتينية ، الحدث الأول غياب داوود التدريجي عنا واعتزاله بعد إصابته بحالة من الكآبة وتعاطية لأدوية مهدئة أفقدته الشهية للأكل ، وقضت على جسده تدريجيا ، وهنا تفرغت بعد التخرج في الجامعة لمكتبة داوود المغلقة ، وصرت أفتحها مرتين في اليوم وأحاول فيها التفرغ لإعداد بحثي عن السرد في التراث العربي ، الحدث الثاني اختفاء صديقنا صالح بدون سابق إنذار ، وهجرة والد ياسر وأسرته إلى الإمارات بعد تقاعده والسكن في أبوظبي ، بالإضافة إلى الحادث المروري الذي تعرض له سعود وهو متجه بسيارته إلى الدرعية ، وتعرضه لكسور في قدميه ألزمته البيت .

وفي ذات عصر كئيب بعد غياب الأصدقاء ، وحين تركت أختي في السوق القريب من المنزل ، مضيت أسير بهدوء على الرصيف الصغير المؤدي إلى موقف سيارتي ، كنت اتساءل

بحيرة وبحرية وبكآبة وملل ، أين سأذهب هذا المساء ، وكنت أفكر بزيارة داوود المريض أو أذهب للمكتبة ، حتى واجهت شابا في مثل عمري ومعه زوجته ، وبينهما طفلة كأنها تعلمت المشي والكلام قبل أيام ، قلت في نفسي وأنا أشعر بكآبة مفاجئة وثقيلة : يا الله ما أجمل هذا الفريق العائلي ، ثم خرجت من السوق ، ركبت سيارتي ، وضعت شريط أم كلثوم ، كانت تغني : (يا حبيبي كل شيء بقضاء) ، وجدت أن وقتي الممل قبل قليل ، تحول إلى رمادي قاتم ، وبدأت أتساءل عن أشياء كثيرة وغامضة ، تشبه غموض موقفي وحيرتي ، لكن حدّثت نفسي أن الأمور لن تستمر على هذه الحال ، الزمن يتحرك بسرعة للأمام وعلينا مجاراته والاستمتاع بوقتنا ، إنه الزمن الصعب الذي كلما تذكرته تذكرت نوبات الرعب الصغيرة التي تدهمني في أوقات غير متباعدة ، تدهمني مثلا حيث أتذكر في لحظة سريعة أنني ممكن أن أظل ، بلا بيت وبلا زوجة وبلا أطفال ، ثم تعود صورة الأصدقاء إلى ذهني بسرعة أيضا ، كأني أريد معرفة ماذا فعلوا في حياتهم ، لكن على الفور أواجه نفسي : هل تريد التأكد أنهم مثلك لم يفعلوا شيئا لكي ترتاح ، هل تريد الراحة حين تعرف أنهم كائنات مؤقتة مثلك ، لماذا لاتهتم بذاتك فقط وتترك هموم مراقبة الآخرين ، ارتحت لهذه المواجهة الصغيرة مع الذات ، حيث حررتني من الآخرين ، لكنني هكذا أخذت ما يشبه القرار بعد

دراسة قديمة ، اتصلت بنادية ، اعتذرت لها عن مطالبتي لها بالعلاج .

قلت لها : كنت أمزح ، وتأسفت عن تخريفاتي السابقة عن السياسة والدين والجنس والفراغ والإحباط السائد .

قلت لها : أريد الزواج منك هل توافقين؟

قالت لي وهي تضحك : نعم لكن أنا مريضة وأنت لا تعمل .

قلت لها : كلنا مرضى في سبيل الوطن ، وبخصوص العمل سوف أقبل المعروض عليّ وأمري إلى الله .

سألتني بجد : ما هو المعروض عليك؟

قلت لها : موظف في مكتبة خالي المريض .

تضحك أيضاً وتقول : ومع ذلك موافقة .

ثم تضيف وهي تضحك : ظل مثقف تعبان ولا ظل حيطة .

وقبل السفر ، كنت مع نادية بعد الزواج ، نسير بهدوء على الرصيف نفسه المؤدي للسوق نفسه ، الذي كنت أقطعه عازباً في العادة ، كنت أفكر وأنا أنظر في عيني نادية اللامعتين ، هل أنا سعيد أم لا ، أم أنني في المنطقة الوسط ، وفي هذه اللحظة ، واجهنا على الرصيف شاب يسير وحيداً ، وهو يحمل كل ملامحي أيام كنت عازباً ، قلت وكنت أتأمل هذا الوقت الحر لهذا الشاب : يا الله ما أروع حرية هذا الشاب ، إني أراها الآن

تطوق روحه وجسده ، وأكاد ألمسها بيديَّ الاثنتين ، وتذكرت فجأة أيام كنت عازباً ، حين قابلني ذلك الشاب وزوجته وبينهما طفلة جميلة ، كانت أغنية جديدة تصدح في رأسي ، وحين تجاوزنا الشاب الحر رحت أطرح أسئلتي الجديدة الغامضة غموض موقفي وحيرتي ، عن الزواج والمجتمع والسياسة والثورات والجنس والتطرف والإرهاب والفراغ والبطالة وسوء الأحوال المادية والإحباط والأحلام المكسورة ، الآن حالي تشبه حال أغنية قاتمة وحزينة وجميلة في الوقت نفسه .

وصلنا القاهرة أنا ونادية ، في وقت متأخر ، أخذنا التكسي إلى فندق شبرد التاريخي وسط القاهرة ، في الطريق إلى الفندق كانت نادية مبهورة بالقاهرة التي تسمع عنها كثيرا ، سألتني عن الجدول السياحي والأماكن التي سنزورها ، قلت لها : أولا نشتري الكتب التي نصح بها شيخنا داوود ، وأيضا كتب البحث عن السرد في التاريخ العربي من مكتبة مدبولي ، قالت نادية باستغراب : الناس يأخذون زوجاتهم إلى مطاعم على النيل وأنت تأخذني إلى مكتبة يا مريض ، قلت لها وأنا أضحك : أنت المريضة وعلاجك سيكون على يدي ، وصلنا الفندق ، سلمت الموظفة جوازي وجواز نادية ورقم حجز الفندق ، وبسرعة سلمونا مفتاح الغرفة ، دخلنا وفوجئنا بإطلالة جميلة على النيل ومراكبه وسفنه وضجيجه ، وقفنا في البلكونة نطل على العالم السينمائي تحتنا ، قالت : واو . . فيلم

على الطبيعة ، قلت لها : يبدو أن علاجك سيكون هنا ، قالت : وعلاجك أنت ، ضحكت وقبضت على وسطها بيدي الاثنتين ، حملتها وهي تضحك إلى الداخل ، وضعتها على السرير ، ذهبت إلى الثلاجة الصغيرة ، كنت أشعر بعطش قديم ، أخرجت زجاجتين صغيرتين ، فتحتهما ووضعتهما على الطاولة ، شربت دون توقف نصف الزجاجة ، ثم رميت جسدي المتعب على السرير ، احتضنتها وقبضت عليها ، ظللت هكذا لمدة ثلاث دقائق متواصلة ، توقفت وعدت للزجاجة ، ثم عدت لها وأكملنا المهمة اللذيذة ، وفي صباح اليوم التالي ، بدأنا في تنفيذ الجدول السياحي القصير ، لمدة خمس ليال ، كنا نقضي النهارات في جولات ممتعة على أهم معالم القاهرة وفنادقها المشهورة ، وفي الليل ننام مبكرين ، بعد تعب ساعات طويلة من المشي .

عدنا من القاهرة مصحوبين بذكريات لا تنسى ، بعد تعرفي على روح جديدة دخلت حياتي ، في البداية ، حدثت بيننا في أيام القاهرة الأولى ، صراعات قوية بلا سبب واضح ، على أشياء تافهة وأشياء مهمة ، لكن الأمور بيننا ، في النهاية ، هدأت بشكل متوازن ، لا غالب ولا مغلوب ، لكنه ربما الهدوء الذي يسبق العاصفة .

وصلنا الرياض وأخذنا السيارة من مواقف المطار وانطلقنا إلى مرابعنا ومرابع أهلنا ، أوصلت نادية إلى بيت أهلها ، قلت

لها وهي تنزل عند باب بيتهم : أحتاج اجازة يومين حتى أرتاح منك قليلا ، قالت : وأنا أيضا ، قلت لها عبارة النفري المشهورة التي قرأناها مع بعض في مصر : (أغلقي باب قلبك الذي يدخل منه سواي لأن قلبك بيتي) ، قالت وهي تضحك : حاضر يا أبا جهل ، دخلت بيتهم وأغلقت الباب ، وأنا مضيت إلى الشقة ، حالما ومنتشيا ومتعبا وقلقا ، كان الجو لازال باردا ، نحن في شهر أكتوبر ٢٠١٠ م ، قبل الثورة المصرية المشهورة بأشهر ، وأشعر أننا شممنا رائحة تلك الثورة العظيمة وهي مبثوثة في أجواء مصر ، دخلت الشقة وأدخلت الحقيبتين الصغيرتين ، أضأت النور وعلى الفور توجهت إلى الحمام ، أمضيت فيه وقتا أعالج داورا في الرأس وأراجع حياة مرت مثل شريط سينمائي ممتع ومقلق ومتوتر وسريع .

وضعت الفوطة على رأسي ، خرجت من الحمام ، فتحت الحقيبة ، أخرجت الملابس ، ثم أخرجت الكتب التي أحضرت من القاهرة ، فتحت الحقيبة الثانية وأخرجت أشياء نادية ، وضعتها في الدولاب ، وبدأت أقلب في هذه الكتب التراثية العجيبة ، كتاب (ترجمان الأشواق) لإبن عربي الذي دخل مكة في عام ٦٠٠ هجري ، وكتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) لابن أياس ، وكتاب (أيام العرب في الجاهلية) ، وكتب عن شمس الدين التبريزي وجلال الدين الرومي ، وكتاب (ألف ليلة وليلة) ، وكتاب (المواقف والمخاطبات) للنفري ، قلت

في نفسي سأعود لهذه المتعة العجيبة لاحقا ، سأقرأ تاريخ العرب وستكون رواية ممتعة ، اتصلت بتركي ، سألته عن سارة وعن أحوال داوود والمكتبة ، قال : سارة بخير وداوود لازال خارج الخدمة للأسف والمكتبة ممتازة ، قلت له : نلتقي غدا في بيتكم نتسامر مع الملك داوود ، قال تركي : في انتظارك ، ودعته وأغلقت الجوال ، دخلت الغرفة ، ورميت جسدي على السرير بعد تعب ، قلت في نفسي : سوف تكون نومة جاهلية عظيمة إن شاء الله .

لحظات نقدية مختارة
حول رواية كائن مؤجل ٢٠٠٤ م

قضيت مع رواية (كائن مؤجل) وقتاً حافلاً مثيراً ، فيه شيء من السعادة ، وكثير من الألم ، واسترجعت ذكريات الرياض القرية الغافية الوادعة ، وتحولها السعيد الأليم إلى مدينة عملاقة من عدة ملايين . وضعت يدك في هذه الرواية على نبض الشوارع الخلفية ، ومن يسكنها من منسيّين وهامشيين ، على نحو ينتزع الإعجاب .

د . غازي القصيبي

ترجمت ادارة النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة رواية كائن مؤجل ، وصدر الكتاب عام ٢٠١٢م بعنوان :

Life on Hold

Modern novel which gives a rare insight into life inside Saudi Arabia

Oxford University Press

الرواية الحديثة التي تعطي نظرة نادرة في الحياة داخل العربية السعودية

جامعة اكسفورد

لكن ما تركته تلك التحولات من آثار مدمرة نفسيا على الفرد خاصة ، فتقوله لغة تعتمد التلميح والإشارة ، كما تستخدم كثافة الشعر وشفافيته ، ولعل هذا المستوى الثاني من اللغة ، الذي يحتل مساحة عريضة من الرواية ، هو ما يشير إلى طموح العتيق وسعيه الواضح ، إلى اقتراح سرديات روائية جديدة ، بقدر ما يصر على أن تغاير وتختلف عما دأب الروائيون السعوديون على تقديمه ، بالقدر نفسه تكمل ما سبق وأن أنتج في تجاربه القصصية القصيرة ، من مستوى حداثي في طرائق السرد واللغة .

أحمد زين

هذا فهد العتيق شاعر القصة السعودية الذي أمتعنا من قبل بإذعان صغير و أظافر صغيرة جداً ,يكتب لنا (كائن مؤجل) روايته الأولى ، وها هو عندما يغادر أرض القصة إلى الرواية كأنما هو يغادر ذاته البكر الأولى مصحوباً بمرارة واقع شديد الصخب والعنف ، وهكذا تكشف الرواية عن إمكانية جديدة من إمكانيات (فهد العتيق) ، إنه الكشف العميق لتاريخية الذات الفردية في حال اشتباكها العنيف مع الذات المجتمعية .

سيد الوكيل

ثمّـة فرز يصفـو مع الزمن ومع التجـربة ، ينقل الرواية في السعودية من كونها مجرد شاهد ووثيقة إلى بناء محكم ، ممهور بصبغة الفن وحدها . تلك الميزة التي تجعل الرواية شاهدا فنيّاً يملك حقَّ المكوث في الضـمـيـر الثـقـافي والمسـيـرة الأدبيـة . وأحسب أن رواية فهد العتيق «كائن مؤجل» ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٤ ـ من هذا الصنف .

عبد الله السفر

أعدت قـراءة الرواية بعـد قراءة مقـال محـمد العبـاس ,ربما هذه إحدى فوائد مثل هذه الكتابات ، الرواية تمثلنا كلنا كائنات مؤجلة ، لـم يتحدث عن نفسه تحدث عن كل شاب سعودي ، الرواية مرهقة وموجعة تأخذك إلى البعيد ، وتغمسك في داخل نفسك ، كان رائعا بالفعل .

مشاعل الفايز

كـائن مؤجل من الروايات القليلة التي تبتـعـد عن تلفـيق الأحداث ، ولا شك أنها تستحق أكثر من قـراءة ، عبر المقال كائن مؤجل بلا قيم شخصية ، لم أتطرق للجوانب الفنية ، إنما حاولت التماس بشكل الوعي الذي أنتجها ، أعني فهد العتيق ككائن مقيم خارج روايته ، متسللا إليها ، وسأواصل في تأمل أشكال أخرى من الوعي ، عندما يقرر فـرد أو مجـتمع ما أن

يروي نفســـه ، أظن من المهم أن نســائل وعي الروائي وروح الرواية ، نعم ، تحدث عنا جميعا ، وبوعي مضاعف أحيانا ، وهنا تكمن فرادة السرد وإشكاليته في آن .

محمد العباس

كاتب محيط بأدواته ، لغته في القصة القصيرة وفي المقالة بها عذوبة تأتيها من حيث لا تعرف ، لم تتوسل لغة (فهد العتيق) في كائن مؤجل تلك البنايات الرخامية الضخمة والكوزموبوليتية والتخطيطات المسبقة ، يحكي فهد العتيق ببساطته الاعتيادية التي يعرفه بها كل أصدقاءه ، انني مدين للصديق المبهر البراءة ، الطاهر كصلاة ، بقراءة عميقة وثقيلة على رأي الموسيقيين .

جارالله الحميد

كائن مؤجل ، رواية لفهد العتيق . . عنوانها شقي ومفتوح ، فيه قلق وشاعرية تدفعنا للكتابة . . الكائن المؤجل ؛ دلالة على كائن غير فاعل على الأقل في الوقت الراهن ، وهذا ما كان ، فبطل الرواية يعيش اغترابا مزدوجا .

مليحة الشهاب